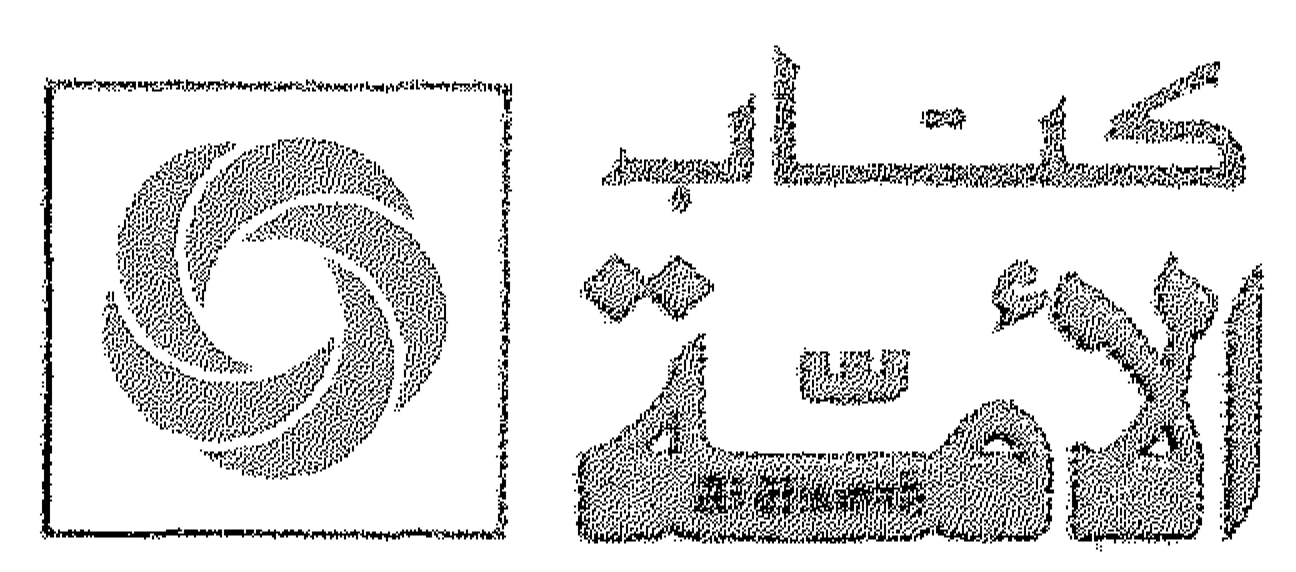


سلسلة فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

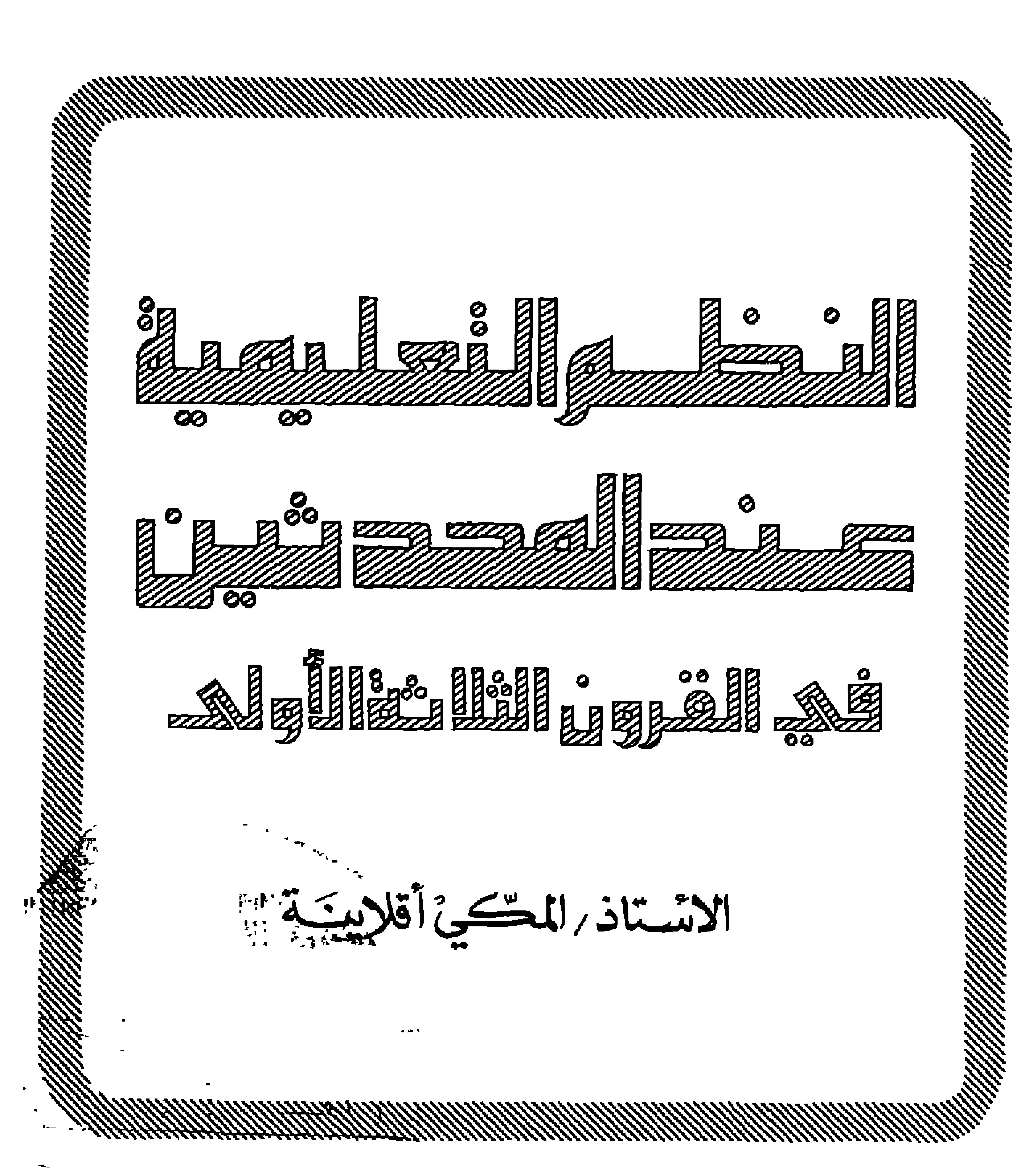
(٣٤)

النظم التعليمية عند المحدثين

في القرون الثلاثة الأولى

الأستاذ/ المكي أقلاينة

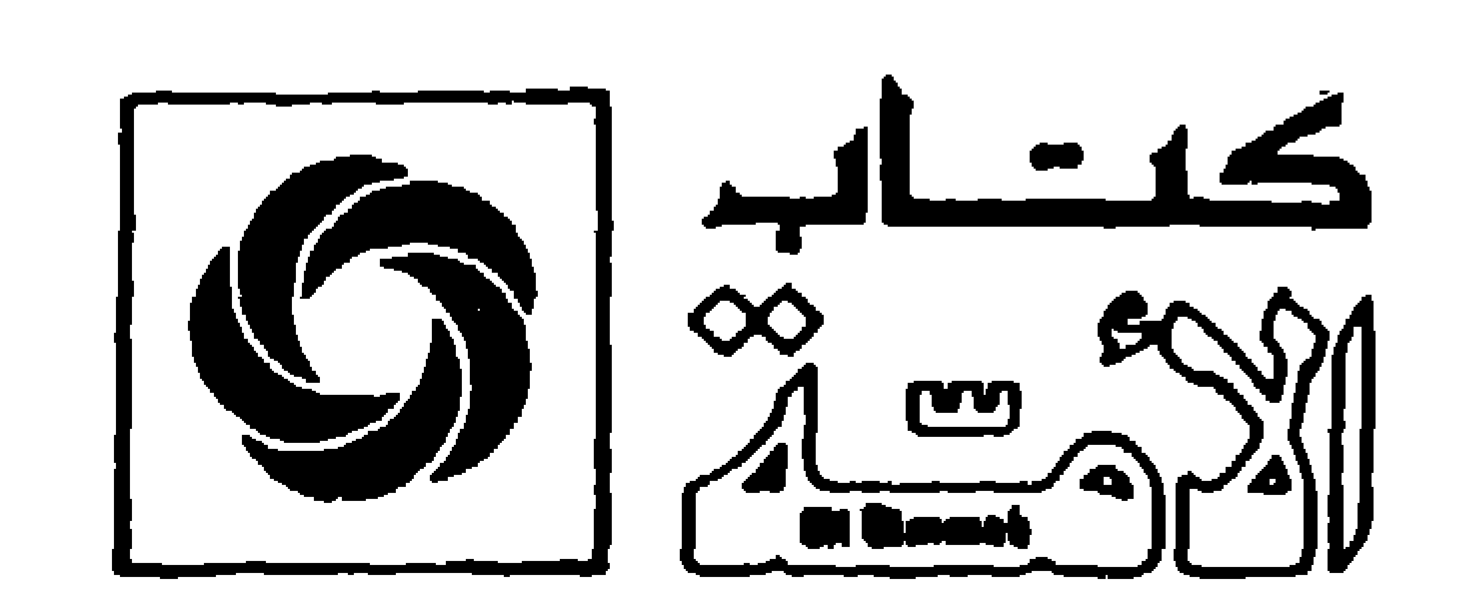
بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

طبعة خاصة بمصر تصدر عن
دار اخبار اليوم
إدارة الكتب والمكتبات

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



صـــدر منـــه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

«طبعة ثالثة» ـ الشيخ محمد الغزالي

- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

«طبعة ثالثة» ـ الدكتور يوسف القرضاوي

- العسكرية العربية الإسلامية

«طبعة ثالثة» ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حول إعادة تشكيل العقل المسلم

«طبعة ثالثة» ـ الدكتور عماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

«طبعة ثالثة» ـ الدكتور محمود حمدي زقزوق

- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

«طبعة ثالثة» ـ الدكتور محسن عبدالحميد

- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

«طبعة ثالثة» + «طبعة انجليزية» ـ الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

«طبعة ثانية» ـ عمر عبيد حسنة

- أدب الاختلاف في الإسلام

«طبعة ثانية» ـ الدكتور طه جابر فياض العلواني

- الـــتراث والمعاصـــرة

«طبعة ثانية» ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

«طبعة ثانية» ـ الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

«طبعة أولى» ـ عبدالقادر محمد سيلا

- البنـــوك الإســـلامية

«طبعة أولى» ـ الدكتور جمال الدين عطية

- مدخل إلى الأدب الإسلامي

«طبعة أولى» ـ الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد «طبعة أولى» الدكتور محمد محمود الهواري
- الفكر المنهجي عند المحدثين «طبعة أولى» ـ الدكتور همام عبدالرحيم سعيد
- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنة

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

«طبعة أولى» ـ الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسة في البناء الحضاري

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهمًا وتنزيلًا

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع الاستثمار ـ النظام المالي)

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية دراسة مقارنة

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالعظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الأسلامية في الأندلس

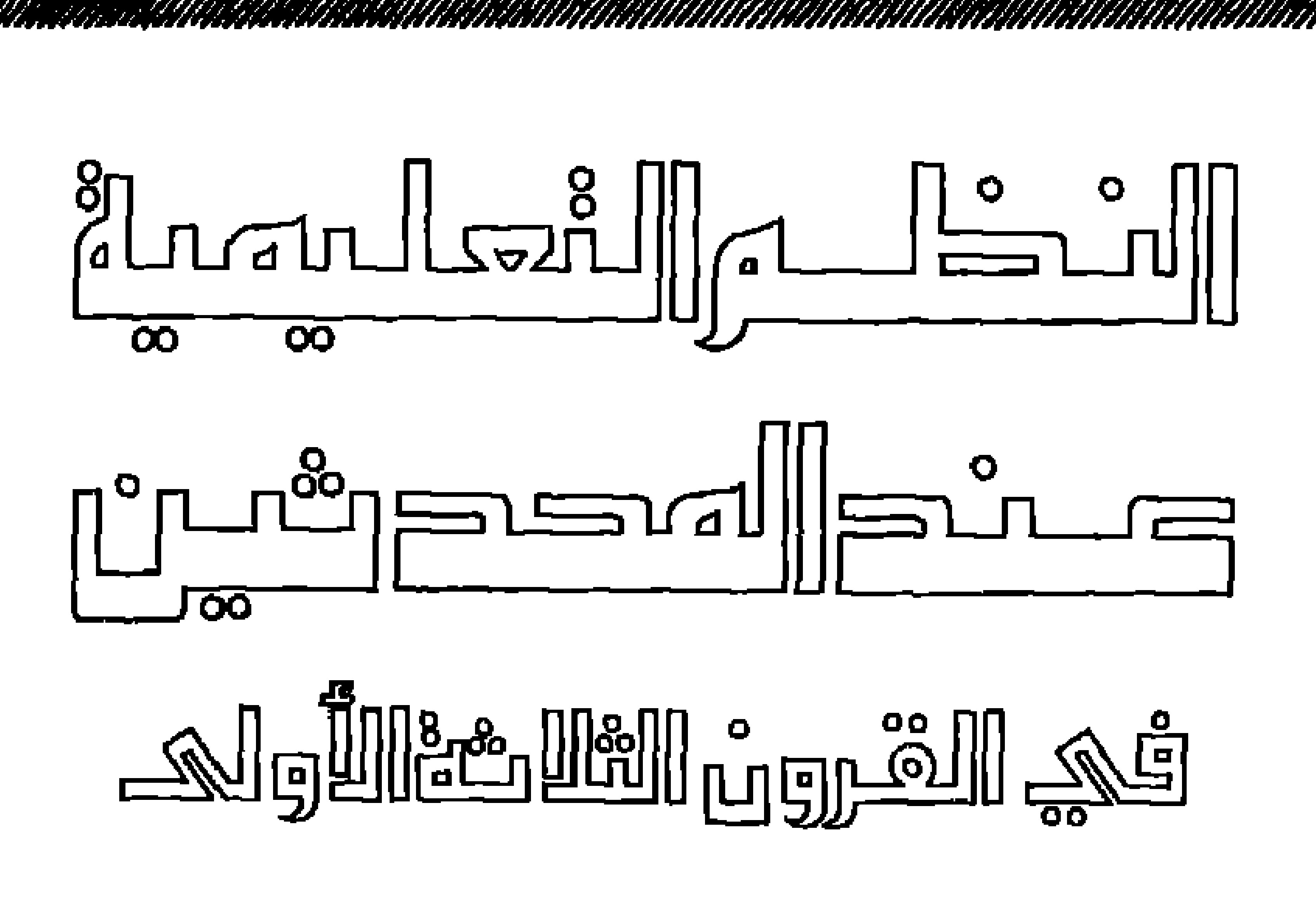
«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبدالرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري



شعبان ١٤١٣هـ فبراير ١٩٩٣م

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة : ١٢٢)

تقــــديم

بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، خلق الإنسان علمه البيان، جعل التعلم فريضة شرعية على المسلم، وعبادة من أعلى أنواع العبادة وأسماها، وناط الخيرية بالتعلم والتعليم، فلا خير في سواهما، وبدأ الرسالة الخالدة الخاتمة بالكلمة: اقرأ، ولم يبدأها بفرض صوم، أو صلاة، أو زكاة، أو جهاد، على أهمية ذلك في بناء الإسلام، لأن القراءة، والكتابة، والتعلم، والعلْم، هي جماع الأمر كله، وهي مفتاح هذا الدين، وحسبنا أن نعلم، أن العلم والتعلم دين، وأن الدين علم ويقين، بعيداً عن الخرافة، وإسقاط العقل، وأن العلم يدعو إلى الإيمان، والإيمان يقود إلى العلم، فكلٌ من العلم والإيمان، يمكن أن يكون مقدمة، ونتيجة للآخر، في الوقت نفسه.

فالعلم في الإسلام قاصد، والقراءة هادفة، تنطلق باسم الله الخالق، الذي خلق الإنسان، وأنعم عليه، وميزه بالقدرة على التعلم، وتستصحب الاعتراف بفضل الله الأكرم، في تحصيل العلم، وتحقيق العبودية لله، وضبط المعرفة بأخلاقها، وتوجيه العلم، ليؤدي وظيفته، في تحقيق إنسانية الإنسان، وتخليصه من التسلط، والطغيان السياسي، والظلم الاجتماعي، والارتقاء به، إلى استشعار المسؤولية عن علمه، ماذا عمل فيه؟، يقول تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ

ٱلإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . كَلَّا إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ ﴾ (العلق : ١ ـ ٨) .

والصلاة والسلام على النبي المعلم ، الذي بُعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . الذي جعل مهمته التربية ، والتزكية ، والتحويل الثقافي ، تتمحور حول التعليم ، وتنطلق منه ، بقوله : إنما بعثت معلمًا . واستصحب أهمية التعليم وحتى التخصص في شعبه ، في كل مراحل الدعوة ، في سلمه ، وحربه ، فكان من فداء الأسرى في معركة بدر ، أن يعلم الأسير عشرة من أبناء المدينة ، يكون ذلك ثمناً لفكاكه من الأسر . واعتبر العمل الفكري من أعلى أنواع الجهاد ، وكان الجهاد بالقرآن مصدر جهاده الكبير ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٢) . والنفرة لطلب العلم ، والتفقه في الدين ، مقدمة على نفير مواجهة الأعداء ، وحصانة ثقافية ، ومقدمة لا بد منها للنصر ، لقوله تعالى : ﴿ فَلولاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ مِنهم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في ٱلدِّين وَلِيُنذِرُوا قَومَهم إذا رَجعوا إِلَيهم لَعَلَهم يَحذَرُون ﴾ (التوبة : ١) . كما جعل التفسح ، وإتاحة المجال لطلبة العلم ، والنفرة إليه سبيلاً إلى الارتقاء ، والرفعة درجات : يقول تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِين آمنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفسَّحُوا فِي ٱلمجالِسِ فافسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وإذا قِيلَ لَكُمْ ٱنْشُزُوا فٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِين آمنوا مِنْكُم والَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة : ١١) . بحيث تحدد مكانة الإنسان ، وارتقاءه في الجنة ، بمقدار تعلمه وقراءته ، يقول رسول

الله ﷺ : يقال لقارىء القرآن : اقرأ وارتق ، فإن مكانك في الجنة ، عند آخر آية قرأتها .

وبعــد :

فهذا كتاب الأمة الرابع والثلاثون : «النظم التعليمية عند المحدثين» للأستاذ المكي أقلاينة ، في سلسلة «كتاب الأمة» ، التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات ، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، في دولة قطر ، مساهمة بإعادة بناء شخصية المسلم المعاصر ، الذي يفقه الدين ، ويفهم العصر ، ويكون قادراً على تحويل الفكر إلى فعل ، وتخليصه من التقليد والمحاكاة ، الذي يعتبر من أخطر الإصابات الثقافية ، وأبرز مظاهر الكسل العقلي ، بحيث يجسد القيم ، في برامج عملية ، ويبرهن على أن خلود الرسالة ، إنما يتحقق بقدرتها على إنتاج ، وإنجاب النماذج المطلوبة وتقديم الحلول الحضارية ، لمشكلات البشرية الكبرى ، وتخليصها من شقوتها ، وإلحاق الرحمة بها ، وأن معجزة الرسالة الإسلامية ، إنما هي معجزة تكليفية تعليمية ، تتحقق من خلال عزمات البشر ، وإراداتهم الفاعلة ، والإشراف التربوي والتعليمي السليم على تكوينهم ، في المراحل الأولى ، وبناء مرجعيتهم ، وتوجيههم ، في المراحل التعليمية المتوسطة ، وإثارة تفكيرهم . وبناء ملكة الإبداع ، والتمرين على الاجتهاد الفكري ، في مراحل النضج العقلي ، ليكونوا مؤهلين لحمل أمانة البلاغ المبين ، في الشهادة على الناس ، والريادة لهم .

ونرى أن هناك حقيقة ، لا بد أن نؤكد عليها ، ونعاود طرحها في كل الظروف والأحوال ، على الرغم من أن الاعتراف بها قائم من الناحية النظرية ، لكن كل التوجهات والمؤشرات ـ في عالمنا الإسلامي على الأقل ـ

تـدل على أنها تُغْتَـالُ ، وتُتجاهَـلُ عمليًا ، بحيث أصبحت أقـرب للشعارات ، التي ترفع بالمناسبات ، للتظاهر ، والتفاخر ، والاحتفال ، منها للواقع ، وعزائم التطبيق ، وهي : أن أي مشروع للنهوض والبناء ، والتنمية ، ومعالجة الخلل ، والتجاوز ، ومحاولة التغيير ، والإقلاع من جديد ، يتم بعيداً عن الارتقاء بنظام التعليم ، واستمرار مراجعته ، وتقويمه ، ودراسة جدواه ، واختبار مدخلاته ومخرجاته ، هو من قبيل المجازفات السياسية ، والضلال الاجتماعي ، والعمى الفكري ، ولون من الضرب في الحديد البارد ، وابتعاد عن الموقع الفاعل ، وتعامل مع عالم الأشياء ، على حساب عالم الأفكار ، التي هي الإنسان ، الأمر الذي يجعلنا ، نخسر الإنسان ، والأشياء معاً ، وتحولٌ عن معالجة أسباب التخلف ، والتقهقر ، والتخاذل الفكري ، والتقليد ، والكسل العقلي ، وتوفير أسباب الإبداع ، إلى الاكتفاء بترميم الآثار ، وادعاء العافية الكاذبة ، أو الخادعة على أقل تقدير .

فليس عبثاً في تاريخ هداية الوحي ، أن ينقل إلينا : أنه في البدء كانت الكلمة ، وليس عبثًا ، أن تبدأ الرسالة الخاتمة بكلمة : ﴿ ٱقرأ ﴾ ، لكن المشكلة التي نعاني منها اليوم : أن أمة اقرأ ، أصبحت لا تقرأ . ذلك أن التعليم ، هو المحضن والرحم ، الذي تتخلق ، وتنمو فيه ، قابليات الإنسان ، وتتشكل شخصيته ، وتنمى مهاراتـه ، وتتكون ثقـافته ، أو تصنع شاكلته ، التي يعمل عليها ـ إن صح التعبير ـ والمدارس والمعاهد والجـامعات هي مجتمعـات المستقبـل ، فـأي تخـطيط استـراتيجي ، أو استشراف للمستقبل ، أو تصور لمجتمعه ، أو رؤية لعالم الغد ، بعيداً عن بناء نماذجه وأمثلته ، في المدارس والمعاهد ، هو رسم بالفراغ ،

واستنبات للبذور في الهواء ، وحراثة في البحر .

لذلك أطلق على صناعة التعليم ، الصناعة الاستراتيجية ، وذلك لما يقوم به التعليم ، من دور خطير في صياغة الأفراد ، وتشكيلهم الثقافي والعلمي ، والتأثير بعيد المدى ، والوصول إلى النتائج غير المنظورة ، حيث تزرع في معاهد التعليم ، بذور مستقبل حياة الإنسان العقلية والسلوكية ، فإذا لم نحسن بناء المقدمات ، التي نملكها بشكل سليم ، فسوف ننتهي إلى النتائج التي تملكنا ، ولا نمتلك إزاءها أي إمكانية للتغيير .

وصناعة التعليم من الصناعات الثقيلة ، والأساسية والدقيقة ، والاستراتيجية ، في الوقت نفسه ، لأن صناعة التعليم ، لا تتعامل مع جوامد ، كسائر الصناعات ، وإنما موادها الأولية ، هم البشر ، بكل مكوناتهم ، واستعداداتهم ومواريثهم ، وغرائزهم ودوافعهم ، وتطلعاتهم ، وخضوعهم لشتىٰ العوامل المؤثرة في بناء الفرد . هو صناعة مدخلاتها ، ومخرجاتها ، من البشر ، أكرم خلق الله ، فالتعليم لا يصنع الآلة ، وإنما يصنع النفس ، ويكوّن العقل ، ويمنح المهارة ، التي تصنع الآلة ، يصنع القادة ، والزعماء ، والعلماء ، والآباء ، والأمهات ، والمبدعين ، والمفكرين ، وبكلمة مختصرة يصنع الإنسان ، ويحضره للتعامل مع الحياة ، بشتى مجالاتها ، فالتعليم يتعامل مع أعقد المهمات ، وأخطرها ، وأبعدها أثراً ، لذلك ، فإن أي خطأ ، أو خلل ، أو عجز ، أو تقصير ، سوف تكون له نتائجه الممتدة والمتراكبة ، على المستويات كلها .

وبإمكاننا القول بكل اليقين : إن مظاهر التخلف ، والتراجع ، والعجز جميعاً ، لا تخرج عن أن تكون أعراضاً للإصابة في العملية

التعليمية ، فالتعليم سبب النهوض ، وسر التخلف والتراجع ، لذلك نرى أن الأمم المتقدمة ، لم يأت تقدمها من فراغ ، من دعاوى وأمنيات ، ولم يأت تقدمها بعيداً عن استشعار أهمية التعليم ، واستمرارية المراجعة لنظم التعليم ، وطبيعة المعلومات ، ودورها في بناء الإنسان ، وتشكيل مجتمع المستقبل ، وقدرتها على تكوين الجيل ، الذي يمتلك التفوق في السباق الحضاري .

وقد يكون من المفيد ، أن نذكر هنا ، أن الرئيس الأمريكي ، الذي يكاد يتحكم بالعالم ، رضي لنفسه ، أن يكون رئيسًا للتربية والتعليم ، ويعلن ذلك ، لأنه من التعليم ، يكون الانطلاق إلى العالم ، لذلك دعا لاجتماع حكام خمسين ولاية في قمة خاصة ، للبحث في شؤون التعليم في أمريكا ، وترجع مشكلة التربية والتعليم عند الأمريكيين ، إلى وجود شعور متنام ، بأن نظامهم التعليمي ، ليس بمستوى طموحات الأمة الأمريكية ، ومكانتها في العالم ، ولم يقتصر المؤتمر على النظرات السريعة ، وإنما تجاوز إلى الدراسات ، والإحصاءات الدقيقة ، حول مدخلات ومخرجات معظم المواد ، خاصة في الرياضيات والعلوم ، وكانت النتيجة التي انتهت إليها بعض الدراسات : أن الأمريكيين ، يتفوقون في مجال الثقة بالنفس ، ولكنهم غير معتادين على بذل الجهد ، لأن الدراسة الجدية ، لا تبدأ إلا بعد الدراسة الثانوية ، كما أن المسؤولين ، يلاحظون : أن الفائزين في المسابقات في المدارس هم غالباً أولاد المهاجرين ، من أصل آسيوي على وجه الخصوص .

وقد تفجرت قضية نظام التعليم ، على المستويات كلها ، عندما سُبِقَت أمريكا في مجال رحلات الفضاء الخارجي ، وكان من نتيجة ذلك ، عنوان

القرار الإعلامي والمثير : أمة في خطر ، ولم تتوجه الدراسة لدرء الخطورة عن الأمة إلى أي موقع ، غير التعليم ، ومما جاء في الدراسة :
إن طلابنا لا يدرسون المواضيع الصحيحة ، ولا يبذلون النشاط الكافي ، ولا يتعلمون بما فيه الكفاية . ومدارسهم تعاني من مستويات خفيضة ، وغير متوازنة ، كما أن جاهزية المعلمين غير سليمة ، ولو أن دولة أجنبية ، غير صديقة ، حاولت فرض هذا الأداء التعليمي ، غير المناسب ، على أمريكا ، لاعتبرنا ذلك عملاً من أعمال الحرب .

وأضافت الدراسة : وما لم تسارع الولايات المتحدة ، لوضع الأمور في نصابها ، فإن هياكلنا الاجتماعية ستنهار ، وثقافتنا ستتآكل ، واقتصادنا سيترنح ، ودفاعاتنا القومية ستضعف .

وحسبنا أن نعلم ، أن الشركات في أمريكا ، تنفق ما يناهز المائة مليار دولار ، لإقامة دورات تدريبية ، للحصول على كفاءات ، لم توفرها الجامعات والمعاهد .

إلى جانب الكتب الكثيرة ، التي عرضت لمسألة إخفاق التعليم ، وإغلاق العقل الأمريكي ، الأمر الذي أدى إلى افتقاره إلى مقومات الحس الحضاري ، والتخوف من تميز مؤسسات التعليم الياباني ، والتفوق على أمريكا في فهم المقومات الحضارية ، والأسس اللازمة لإثراء العقل .

فالعملية التعليمية أو النظام التعليمي ، بما في ذلك نوعية المعلومة ، ومدى ملاءمتها ، وأدوات التوصيل : من المعلم ، والمناهج ، والكتاب والوسائل المعنية ، أو تقنيات التعليم كلها ، لا بد أن تخضع دائمًا ، للمراجعة والتقويم ، ودراسة الجدوى ، والتغيير ، والتطوير ، والتجديد ، في هذا العصر ، الذي يمكن أن يطلق عليه بحق ، عصر

التسارع العجيب ، وثورة المعلومات ، حيث لم تعد تقتصر عمليات التطوير ، والتحديث ، على وسائل نقل المعلومة ، وإنما تجاوزت ذلك إلى طبيعة ، ونوعية المعلومة نفسها ، وابتكار وسائل حفظ ، ونقل ، واسترجاع المعلومات ، واخضاع المعلومات ، إلى برمجات مسبقة ، تقوم الحاسبات بدراستها ، وتقرير النتائج المطلوبة فيها ، توفيرًا للطاقة ، واختزالاً للزمن ، وبذلك تم نقل العملية التعليمية ، من موقع الحفظ ، وأهمية الذاكرة ، إلى موقع التفكير ، وأهمية الابتكار ، والإبداع ، الأمر الذي انتهى إلى صورة ، جعلت من التراكم المعرفي ، والإنجاز العلمي ، لعشرات السنين ، أو مئات السنين ، يختزل ، أو ينجز ، في سنة واحدة ، أو أقل ، لذلك نعتقد أن الإبقاء على نظام التعليم التقليدي ، سواء بالنسبة لطبيعة المعلومة ، أو لوسائل التوصيل ، سوف تنتهي بالجيل ، إلى العزلة والغربة ، في الزمان والمكان ، والتحنط في متاحف التاريخ ، حيث لا مجال للكسالى ، الذين يفنون أعمارهم ، ويستنزفون عقولهم ، في الحفظ والتلقين ويقضون أوقاتهم ، في عمليات حسابية عقيمة ، ويعتمدون أصابعهم في عصر الحاسبات الإلكترونية ، التي توفر أعقد العمليات بلحظات . لا مجال لهم في عالم الغد ، إن لم نقل : في عالم اليوم .

وقد تكون المشكلة ، بعجز ، وعدم إدراك ، بعض من يوكل إليهم أمر التخطيط ، للعملية التعليمية ، للتطورات السريعة ، والحاجات المتبدلة ، واختلاف إيقاع العصر ، واستيعاب التطورات العلمية من حولهم ، إلى جانب الخلط بين أهداف ومنطلقات التعليم ، ووسائله ، والتوهم : أن الإبقاء على طرائق التعليم ، ووسائله التقليدية ، التي تجاوزها العصر ، من الأصالة ، وحماية الأهداف ، حتى ولو أدى ذلك ، إلى الخروج من

الحاضر ، والمستقبل معاً ، وكأن الوسائل التي أنتجت في عصور سابقة ، كانت لها مواصفاتها ، وسماتها ، وحاجاتها ، باتت مقدسة ، وخالدة ، ويجب أن تنتج في كل عصر ، حتى ولو تغير الحال ؛

ولعل من أخطر المشكلات ، التي يعاني منها نظامنا التعليمي ، في العالم الإسلامي ، والتي لا بد من حسم الأمر فيها ، هي مشكلة عدم الاعتراف بأهمية التخصص ، سواء في ذلك العلوم الإنسانية ، أو العلوم التجريبية ، وإنهاء مرحلة الادعاء الخادع ، والرجل الملحمة ، الذي يدعي المعرفة في كل شيء ، حيث لم يعد العمر ، ولا العقل ، يتسع إلا لاختصاص واحد ، أو جزء من اختصاص ، يمكّن صاحبه من الإحاطة بالعلم ، والتطوير له ، والإبداع في نطاقه ، واستيعاب التراكم المعرفي ، ذلك أن الاختصاص ، أصبح من لوازم التقدم العلمي ، وتكامل التنوع المعرفي ، إضافة إلى ما يترتب على الاختصاص ، من متانة بناء المجتمع ، وتماسك هياكله ، ونمو العمل المؤسسي ، بحيث سيصعب على الفرد في المستقبل ، أي إنجاز بعيداً عن التكامل مع الآخرين ، وبذلك تسهم فلسفة التعليم المتخصص ، بالقضاء على الروح الفردية ، والتبعثر ، والتمزق الاجتماعي ، الذي يعتبر من أخطر آفات المسلم اليوم .

ولا شك أن هناك خلطاً بين مفهوم الثقافة ، ومفهوم العلم ، في الذهن المسلم المعاصر ، فالثقافة في هذا المجال ، تعني : أن يعلم الإنسان شيئًا عن كل شيء ، حتى لا يعيش غريباً معزولاً عن الحياة العامة ، أما العلم ، فهو : معرفة كل شيء عن الشيء ، وهذا هو التخصص المفضي إلى الإبداع .

وكم ستكون المأساة مخيفة ، إذا علمنا أن كثيراً في عالمنا الإسلامي

لا يزالون يتطاولون على غير تخصصهم ، أو يعملون في غير تخصصهم ، أو يغادرون تخصصهم ، عمليًا ، باسم العمل للإسلام والمسلمين ، وكأن العمل للإسلام ، يعني ، عمى الألوان ، والعامية العلمية ، ويعني العجز عن التعامل مع التخصص ، وإدراك حاجة المسلمين إليه ، من طب ، وهندسة ، وعلوم ، وجعله في خدمة الإسلام ، والتحول إلى مواقع الخطب ، والوعظ ، والتنظير للإسلام ، بلا زاد كاف من العلم الشرعي ، وهذا التطاول ، لا يقتصر على دارسي العلوم التجريبية ، وإنما أصبح آفة عامة لحقت ببعض دارسي العلوم الشرعية أيضًا ، الذين يقحمون أنفسهم في الحديث عن أخطر القضايا العلمية الدقيقة ، التي مجالها أهل الاختصاص .

وقد تكون المشكلة حقًا ، في تشكل ذهنية بعض قيادات العمل الإسلامي ، أو القائمين على مؤسساته ، فبدل أن يرعو الدارسين ويشجعوهم ، ويقنعوهم بأهمية التخصص ، ودوره في البناء الحضاري الإسلامي ، ويذللوا لهم السبل ، ويتابعوا الإشراف على تحصيلهم ، يقبلون منهم حالة التسكع ، والفشل التي قد تؤهلهم فيما بعد للعمل في ريادة المؤسسات الإسلامية ، فكم من الأطباء والمهندسين المتخصصين في شعب المعرفة المتنوعة غادروا اختصاصاتهم إلى ما يتوهمون أنه عمل إسلامي ، والمسلمون بحاجة إلى تخصصاتهم .

ولا ندري كيف يمكن أن نقيم الدين ، الذي هو منهج شامل ، لجميع جوانب الحياة ، ونقوم بأمانة الاستخلاف الإنساني ، ونبدع البرامج في كل المجالات ، التي تمكن من تنزيل الإسلام على الواقع ، بدون الإيمان بأهمية التخصص ، وترجمتها إلى واقع .

وقد يكون من المفيد التوقف قليلاً أمام هذه القضية من الناحية الشرعية ، وبالمقدار البسيط ، الذي يسمح به المقام ، وهـو : أن التخصص ، في شتى فروع العلم والمعرفة ، يعتبر من الفروض الكفائية ، حيث لا تتحقق مهمة الاستخلاف إلا باستدراكها ، فإذا لم تتوفر للمجتمع الإسلامي ، الاختصاصات المطلوبة ، يعتبر المجتمع كله آثمًا من الناحية الشرعية ، ولعلنا نقول : إن اعتبار تحصيل الاختصاصات العلمية المتنوعة من فروض الكفاية ، يعني فيما يعني : تحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي للأمة المسلمة ، ذلك أن فرض الكفاية يعرف : بأنه إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين ، ومعنى قام به : أي أداه على الوجه الأكمل وكفى المسلمين الحاجة في هذا المجال ، أما إذا باشره بعض الأفراد ، دون أن تتحقق الكفاية ، فمعنى ذلك ، أن المجتمع بعمومه لا يزال آثمًا ، لأنه لم يوفر ذلك . هذه قضية . وقضية أخرى ، لا بد أن نعرض لها أيضًا ، وهي أن هذه التخصصات ، التي شرعت على الكفاية ، تصبح لمن اختارها ، وانسلك فيها ، فرض عين ، لا تجوز مغادرته ، إذا كانت الأمة المسلمة بحاجة إليه .

صحيح إن هناك علمًا وجوبه عينيّ ، أو هو فرض عيني ، وهو معرفة فقه العبادات ، وحكم الحلال ، والحرام ، أما فيما وراء ذلك ، فالعلوم جميعاً ، فرضيتها على الكفاية .

إن غياب هذا الفهم عن العقل المسلم ، وعن نظم التعليم ، وفلسفته ، يعتبر من الكوارث الثقافية ، والعجز عن إدراك مقاصد الدين . والتوقف عن الامتداد ، بعطاء النبوة الخالد ، الذي بدأ التخصص فيه مع الخطوات الأولى ، حيث كان يعرف : الأقرأ ، والأفقه ، والأفرض . . إلخ ، فهل

يحق لنا ، بعد ذلك ، أن نعتبر الطلبة ، الذين يغادرون جامعاتهم ، والأطباء ، والمهندسين ، الذين يغادرون مواقعهم ، إلى مجالات الوعظ والتنظير لأمور الدين من التدين السليم ؟! .

وما لم يدرك المسلمون بشكل عام ، والقائمون على أمر التعليم ، بشكل خاص ، أهمية التخصصات العلمية المتعددة ، واعتبارها من الدين ، وأن الإبداع ، والنبوغ فيها ، من الفروض ، وأنها عبادة من العبادات ، ويتحول العاملون للإسلام فعلاً ، من مرحلة الحماس ، إلى مرحلة الاختصاص ، واعتلاء المنابر الفاعلة ، والمؤثرة ، وامتلاك القدرة على إنتاج العلم ، وجعله في خدمة مقاصد الدين ، وإبراز المنهج الوظيفي للتعلم ، فسوف يبقى كلامنا عن مكانة العلم ، والتعلم ، في الإسلام ، دعوى بلا دليل ، خاصة وأن الحاجة أصبحت ماسة اليوم لإسلامية العلوم ، وربطها بوظائفها ، وأهدافها التي تحقق إنسانية الإنسان ، ذلك أن العالم المتقدم تكنولوجيًا ، بحاجة إلى هدى الإسلام لأنه : امتلك الوسيلة ، وافتقد الغاية ، وتمكن من العلم ، وأضاع الحكمة .

إن الكلام عن أهمية التخصص ، ودوره في تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة المسلمة ، على اعتبار أنه من الفروض الكفائية ، يقودنا بشكل طبيعي ، إلى التوقف عند قضية الابتعاث ، من أجل التخصص ، تلك القضية الخطيرة التي يمكن أن تشكل ـ لو أُسيء استخدامها ـ جسرًا للغزو الثقافي ، والاستلاب الحضاري ، يكرس التخلف والتبعية ، وذلك إذا تمت بشكل عشوائي ، وغير مخطط وهادف ، بينما يمكن أن تكون مصدرًا للتبادل المعرفي ، والتفاعل الثقافي ، والتحريض الحضاري ، يشعر الأمة بالتقصير ، ويستفزها لتستجمع قواها ، وتستكمل نواقصها ، وتستدرك

الاختصاصات غير المتوفرة عندها ، لتقلع من جديد .

ولا بد من الاعتراف ، أن الابتعاث التعليمي في العالم الإسلامي اليوم ، صار يخلق مشكلة ، بدل أن يقدم حلاً ، لأننا لم ندرك بعد ، أبعاد القضية ومخاطرها تماماً ، كما أننا لا نحسن التعامل معها . فهو من جانب يشكل نزفاً للعقول والطاقات الفكرية ، التي ترتحل للغرب ، للحصول على التخصص ، فلا تعود ، بسبب العوامل الطاردة في العالم الإسلامي ، والعوامل الجاذبة هناك ، حيث الحرية ، وتقدير قيمة التخصص ، واحترام المواهب الإنسانية ، وتقديم المكافآت المادية المجزية ، بينما الحال في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ، محزن حقاً ، ذلك أن كثيرًا ممن دفعتهم روح الانتماء ، وحب الوطن ، والشعور بالواجب نحوه ، إلى العودة ، كان نصيبهم الضياع ، والإهمال ، والنسيان ، والتعيين بمراكز بعيدة عن اختصاصهم ، مساواة لهم بعوام المتعلمين ، بحيث أصبحوا ينتظرون الفرصة ، للهروب ، والعودة من حيث أتوا .

وقد كان المأمول ، من بعض دول العالم الإسلامي ، أن تجد فيهم فرصتها ، وتحسن الإفادة ، من هذه الطاقات المتخصصة ، والمتميزة ، الهائمة على وجوهها ، بشكل أفضل ، لكن مخططات السوء ، تحاول الوصول إلى كل المواقع ، حتى لا يبقى سبيل للنهوض . إضافة إلى أن بعض الجامعات والمعاهد في الغرب التي تحكمها الروح الاستعمارية ، وليس العلمية ، رضيت لنفسها أن تتخصص بإعطاء الشهادات ، لأبناء العالم الإسلامي ، والعالم الثالث بشكل عام ، دون أي اعتبار للمعايير العلمية ، والمعرفية ، ليعودوا رؤوساً جهالاً ، يحتمون بشهادات من الغرب فاشلة ، لقيادة مؤسسات علمية ، وعملية ، فلا يزيدون الأمة إلا خبالاً ، بحيث

تبقى الأمة المسلمة ، بحاجة إلى الخبراء ، والعلماء ، والمستشارين ، وسائر المناصب الأخرى التي تتحكم فيها ، هذا على أحسن الأحوال ، التي يعيشها العالم الإسلامي ، إلا من رحم الله .

أما الوجه الآخر لقضية الابتعاث ، فهم أولئك الذين ينتهون إلى مزابل الحضارة الغربية ، فلا يرون منها إلا صورتها الداعرة ، ومجتمعها الإباحي .

وفي كلا الحالين ، نرى الخسارة فادحة للعالم الإسلامي ، سواء أولئك الذين انتهوا إلى مقابر الحضارة الغربية ، وشكلوا دماء في شرايينها ، وقوة في تقدمها ودفعها ، فأصبحوا كالآلات في ماكنتها ، توظف طاقاتهم ، وتسخر أوقاتهم وإمكاناتهم ، بعد أن أنفقت عليهم بلادهم المبالغ الطائلة ، في مراحل التعليم الأولى ، أم أولئك الذين انتهوا إلى مزابلها فضاعوا وأضاعوا .

ولذلك لا بد من استشعار خطر قضايا الابتعاث ، وتخليصه من العشوائية ، والارتجال ، وإعادة دراسته ، في ضوء الحاجات الحقيقية للأمة ، وتحقيق المرجعية المطلوبة للمبتعثين ، وتزويدهم بالدليل الثقافي ، أو الفكري ، الذي يمكِّنهم من التعامل مع حضارة وثقافة البلاد ، التي يرتحلون إليها ، والإشراف المستمر عليهم من مؤهلين متخصصين .

ونحن في العالم الإسلامي لا نقتصر على الابتعاث العشوائي إلى جامعات ومعاهد الغرب ، بدون أن نزود الطالب بدليل فكري ، ومقياس ثقافي لكيفية التعامل مع ثقافة الغرب ، وإنتاجه الفكري ، بل نصر على تكريس حالة التخلف ، والتخاذل الثقافي ، أمام الآخرين . وبدل أن نقيم ندوات

ومؤتمرات تُطرح من خلالها مشكلات المبتعثين العلمية ، والفكرية ، والثقافية ، ونكون على إدراك مسبق بما تقدمه مراكز البحوث والدراسات والجامعات ، ومراكز الإعلام هناك ، ونفتش له على المتخصصين ، القادرين على معالجته ، ومناقشته مع الطلبة ، والمبتعثين ، وتبصيرهم بدوافعه ، وأهدافه ، ومنطلقاته ، وأغواره ، وكيفية الإفادة من إيجابياته ؛ نقيم مؤتمرات لاتحادات الطلبة ، ونحمل إليها مشكلاتنا ، وقضايانا ، وخلافاتنا في العالم الإسلامي ، وإن لم توجد خلافات معاصرة ، نستنجد بالتاريخ ليمدنا بمشكلات فكرية ، وعقيدية ، مضت بخيرها وشرها ، وقد لا يكون الطلبة سمعوا بها من قبل ، فنصبها فوق رؤوسهم لنمزق وحدتهم ونكرس خصوماتهم ، ونفرق جمعهم ، ونحضِّرهم ، شئنا أم أبينا ، ليكونوا ضحايا الاستشراق والغزو الثقافي .

والذي يراجع قوائم الخطباء ، والمتحدثين ، في تلك المؤتمرات من سنوات ، يراهم هم أنفسهم ، يصلحون لكل المناسبات ، وكل الموضوعات ، وكل المواسم ، وقد لا يرى بجوار ذلك ، ندوة متخصصة بحاجات المبتعثين الأصلية ، ونوعية دراساتهم ، واهتماماتهم ، والمستقبل الذي نعدهم له ، ونطلبه منهم ، إلّا من رحم الله .

فمتى نرتقي بندواتنا ومؤتمراتنا ، ونبصر الساحة الثقافية والفكرية ، التي يخضع لها هؤلاء الطلبة ، ونرسل لهم المتخصصين في العالم الإسلامي ، يلتقون بهم ، ويعالجون قضاياهم العلمية والثقافية ؟ فذلك أجدى من أن يبقى كياننا الفكري قائمًا على مهاجمة الآخرين ، دون أن نقدم البديل ، وفي تلك الحال سوف ينتهي معها هجومنا إلى مصلحة الآخرين .

ولعلنا نقول : إن قضية الابتعاث ، لا تخرج عن أن تكون صورة من

الصور المرعبة ، التي وصلت إليها العملية التعليمية ، في عالمنا الإسلامي ، بعد أن انسلخ أو كاد ، عن المرجعية الإسلامية ، حيث تفشل المؤسسات التعليمية اليوم عن الإنتاج المطلوب ، وكل منها تلقي باللوم على الأخرى ، على الرغم من كل الوسائل المعينة ، والتقنيات التربوية المتقدمة ، وتوفر الكتاب المدرسي بإخراجه المتميز ، ومواصفاته المطلوبة ، وشكله الجذاب .

وحقيقة العملية التعليمية ، في كثير من أنحاء العالم الإسلامي ، أشبه بمن يقيم أشكالاً ، وهياكل من الثلج ، ثم يبكي على ذوبانها . لقد أصبح وضع المعلم ومكانته الاجتماعية ، هو النموذج الاجتماعي الرديء ، الفقير ، المهزوم ، الذي يدفعه العوز ، إلى مواقف وممارسات ، تزري بالقضية التعليمية ، وتنفر منها ، إلى جانب أن بعض الذين يلجأون إلى مهنة التعليم ، بعد هذا التردي ، غالباً هم الذين لا يجدون غيرها ، وقد يترقبون الفرص ، للهرب منها ، أملاً في تحسين أوضاعهم إضافة إلى العواصف السياسية ، في بعض بلاد العالم الإسلامي ، التي اقتلعت العملية التعليمية من أساسها ، وعبثت بمفاهيمها وقيمها ، وعايرت من يعملون فيها : ليس بمدى كفاءتهم التعليمية ، وإنما بمدى ولائهم السياسي . وجرأت الكثير من الطلبة ، بسبب انتماءاتهم السياسية ، والحزبية ، على معلميهم وأماتت قابلياتهم للتعلم ، وسمحت لهم باختراق قدسية المعايير التعليمية ، والقفز من فوقها ، للوصول إلى المعاهد ، والكليات ، والبعثات ، بدون مؤهل علمي مناسب ، إضافة إلى أوهام كثيرة ، زرعت في عقول الطلاب ، بأن التعلم سبيل البوار ، وأن الذي يمتلك المال ، يستطيع التحكم بكل الخبرات ، وتوظيفها ، وأن الذي يمتلك العلم ، عالة

على من يمتلك المال والسلطان ، الأمر الذي يكرس الجهل ، ويقتل القابليات للتعلم ، ويلغي الدافعية تماماً مهما حاولنا التظاهر بغير ذلك .

ولعل من أخطر إصابات العملية التعليمية ، أو نظم التعليم ، في عالم المسلمين اليوم ، هو في إنتاج شخصيات مشوهة ، مشوشة ، متناقضة ، وممزقة ، تعيش صراعاً وانشطاراً ثقافيًا ، لا ينتهي ، نتيجة لتناقض الموارد التعليمية ، واضطراب فلسفة التعليم ، الذي يذهب ضحيتها الطالب ، وذلك بسبب الفصل بين التعليم الديني ، والتعليم المدني ، الذي كان ثمرة طبيعية ، للصراع بين العلم ، والدين ، أو بين العلم ، ورجال الكنسية على الأصح ، عندما وقف رجال الكنسية ، في وجه العلم والعلماء ، ومن ثم جيء به إلى عالم المسلمين ، الذي لم يعان من تلك المشكلات أصلًا ، وإنما كان ارتقاؤه العلمي ، بسبب الإسلام الذي اعتبر العلم بشكل عام عبادة ، وفريضة عينية ، أو كفائية .

لذلك بإمكاننا القول : إن مؤسسات التعليم المدني - إن صح التعبير - التي أقيمت في العالم الإسلامي ، إنما بنت فلسفتها ، على تكريس فصل الدين عن الحياة ، ومعاداته ، ووضعه في خانة الخرافة والأساطير ، والغيبيات المبهمة ، وحاولت إلغاء الوحي كمصدر للمعرفة ، لأنه غير خاضع للحس والتجريب ، وأريد لمؤسسات التعليم المدني ، أن تخرِّج أعداءً للإسلام ، جهلة بتاريخه وثقافته ، وحضارته ، يدينون للتحكم الثقافي الغربي ، في المنهج ، والمصدر ، والمرجع ، والأستاذ ، وكان من

الطبيعي أن يحتل خريجوا مؤسسات التعليم المدني ، المواقع المؤثرة ، في المجتمع ، سواء قلنا : إن ذلك جاء بسبب التخطيط والاحتواء الثقافي والسياسي ، أم قلنا : بأنهم هُيِّؤوا بطبيعة دراساتهم لشغل وظائف الدولة الحديثة ، بينما انغلقت بعض مؤسسات التعليم الشرعي والديني ، على الماضي ، فعاشت غربة الزمان ، وإن لم تعش غربة المكان ، الذي عاشته مؤسسات التغريب ، ولم تتنبه لشمولية التصور الإسلامي ، وأهمية التخصصات ، المطلوبة للمجتمع ، وأهمية تطوير فلسفتها ، ومناهجها ، ودراساتها ، وحوصر خريجوها ببعض الوظائف الهامشية ، التي حالت دون تأثيرهم في المجتمع ، مما أدى إلى عزوف كثير من الطلاب عنها ، إلا في حالات خاصة ، من الفقر ، والعجز ، عن متابعة التعليم ، في مؤسسات ، تقتضي نفقة ، أو بسبب ضعف المستوى العلمي ، الذي لا يؤهلهم ، إلى دخول مؤسسات التعليم المدني ، وهنا وقعت الواقعة في نوعية الطلبة ، وفي أسلوب التعليم وطرائقه ، ولولا عطاء الصحوة الإسلامية ، التي حفزت الكثير من الطلبة النابهين على الدراسات الشرعية ودخلت المؤسسات التعليمية حقيقة ، ولم تخرج منها ، كما هو المنطقي ، والمطلوب ، فأنقذت كثيراً من الأجيال المسلمة ، من التيه ، وضياع الانتماء الحضاري ، وأعادت الثقة ، والاعتبار ، لبعض خريجي المدارس الشرعية ، وتقدمت بهم إلى الحياة ، لكانت الكارثة التعليمية والثقافية مدمرة فعلاً .

ونستطيع أن نقول أيضاً : إن مؤسسات التعليم الشرعي ، لم تستطع

الامتداد بالنظم التعليمية ، التي بدأت فيها مسيرة التعليم الإسلامي ، في القرون الأولى ، ولم تحاول أن تدرك فلسفتها ، فانقلبت عند كثير منها الوسائل إلى غايات ، وثوابت ، فاستقرت ، واستمرت ، عليها ، ظناً منها أنها من الدين ، فجففت بذلك منابع الدين في الكتاب والسنة ، وغيبت مقاصده ، عن فلسفة التعليم ، وسادها التقليد والمحاكاة ، وانغلقت عن المجتمع ؛ كما أريد لها ، وانعزل خريجوها عن الحياة ، ووظائف المجتمع الجديد ، وحدث الانشطار الثقافي الرهيب بين خريجي التعليم الشرعي ، وخريجي التعليم المدني .

وقد لا نكون معنيين باستقصاء إصابات العملية التعليمية ، في عالمنا الإسلامي ، والتي تحول دون الإبداع ، والإنتاج المطلوب ، بعد هذا التاريخ العريق من النظم ، والأنماط التعليمية ، التي يزخر بها تراثنا ، والتي نعجز اليوم عن محاكاة إنتاجها ، وحسن تطويرها ، والامتداد بها ، على الرغم من التقدم كله في أدوات التوصيل ، ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة السريعة إلى مواطن الانهدام الرئيسة ، التي أتينا على ذكر شيء منها ، ولعل من أخطرها على الإطلاق تهديم مدرسة التعليم الأولى (المعلم الأول) أو تهديم مرحلة التعليم الأولى في حياتنا العلمية . وهي : المرأة الأم ، وحرمانها من التعليم لعقود طويلة ، تحت شعارات من التدين المغشوش ، والثقافة الفاسدة ، والفهوم المعوجة ، وغلبة التقاليد الظالمة ، على التعاليم الإسلامية ، التي جاءت ثمرة للتخلف والغياب الحضاري ، عندها أصبحت قيمة الجهل ، أفضل من قيمة العلم ، بالنسبة للمرأة ،

فاعتبر تعليم المرأة مفسدة لها ، لذلك وحفاظاً على دين المرأة وخلقها ، منعت من التعليم ، سدًّا للذريعة ، ودرءًا للمفسدة وكأن العلم مفسدة والجهل محمدة ! فكان العلم والتعليم مقتصراً على كثيرات ممن رق دينهن بحسب الظاهر ، وكان لا بد لهذه الفتاوى المحزنة ، التي يُتَذَرَّعُ بها ، أن تسقط أمام المنطق ، والشرع ، والواقع ، فخرجت المرأة المسلمة إلى التعليم ، لتجد أستاذاتها اللواتي يمثلن القدوة ، ممن يتنكرن للدين ، ويسخرن من تعاليمه ، التي تحرم من العلم ، وتشيع الجهل .

لذلك نقول بكل اليقين : إن تقاعس العلماء العاملين ، والمصلحين ، عن مهمتهم في تصحيح الحال ، وتحرير المرأة ، من التقاليد الجائرة ، التي لا علاقة لها بالتعاليم الشرعية ، هو الذي أشاع هذا الواقع البئيس ومكَّن لأن تجيء دعوات تحرير المرأة ، وأهمية تعليمها ، على يد أعداء الإسلام ، من المفسدين في الأرض ، فكانت دعاواهم في تحرير المرأة ، في الحقيقة ، دعوة إلى تحللها ، وكانت الاستجابة لدعاواهم طبيعية ، لأن المرأة في العالم الإسلامي أعطاها الله ، وحرمتها التقاليد الظالمة ، فكانت دعوة التحرير ، والتعليم ، على يد دعاة التغريب ، فتهدمت بيوتنا ومؤسساتنا التربوية والتعليمية الأولى من داخلها . ولا تزال رواسب التقاليد المخالفة للتعاليم الإسلامية ، تعمل عملها في حياتنا وتتحكم بالمرأة باسم التدين ، أو باسم الدين ، وتمنعها من التعليم ، سدًّا لذريعة الفساد ، وادعاءً بضرورة انصرافها إلى القيام بوظيفتها الأولى ، وهي تربية أولادها ، ولا ندري كيف يمكن لها القيام بتربية أولادها ، وتأهيلهم لمجتمع لا تعرفه ، وحياة

لا تدركها ؟ وكيف يمكن لأم جاهلة ، أن تعد أبناءها للتعامل مع الحياة ، وتبصرهم بمسالكها ؟ وهي أشبه ما تكون بالمعوقة ، الفاقدة لبعض نعم الله عليها من الحواس .

وهنا قضية ، قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً ، وإن كان لها مقام آخر ، وهي : ظاهرة محاصرة بعض النصوص بحجة فساد العصر ، سدًّا للذريعة ، ودرءًا للمفسدة ، والتوسع في مبدأ سد الذرائع ، إلى درجة أدت إلى تعطيل كثير من النصوص ، الأمر الذي يتنافى مع خلود الشريعة ، ويناقض علم الله ، الذي أنزل الشريعة ، بتطور الأحوال في الزمان والمكان ، فالله أعلم بالعصور ، وفسادها ، وصلاحها ، وما يصلحها ، فالمصلحة فيما أمرت الشريعة ، والمفسدة فيما نهت عنه ، وتعطيل كثير من النصوص ، باسم سد ذريعة الفساد ، يشكل خطورة ، لا تقل من حيث النتيجة عن فعلة أعداء الإسلام ، في ادعائهم بأن الشريعة إنما جاءت لعصرٍ ماضٍ ، ولا تصلح لهذا العصر ، بعد أن تطورت المجتمعات .

فالنتيجة عند من يعطل النص سدًّا للذريعة ودرءًا للمفسدة ، ومن يعطل النص لعدم صلاحيته لهذا العصر واحدة ، وبدل أن يعمل المسلمون ، لتحقيق مقاصد الدين ، وتصويب الوسائل التعليمية ، وتطبيق النصوص جلبًا للمصالح ، استنفدوا طاقاتهم في درء المفاسد فضاعت المصالح ، وشاعت المفاسد .

وحسبنا أن نعلم : أن الإسلام لم يفرق ، بين المرأة والرجل ، في

التعليم ، والولاء والبراء ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، إلى درجة ، تميزت فيها المرأة في بعض المراحل ، وتفوقت ، فاستدركت على الصحابة ، وصوبت لبعضهم ، وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهم ، وكان يجلس في حلقة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهم مشاهير العلماء والمجتهدين ، كما أن المرأة ، تعلمت ، وبايعت ، وهاجرت ، وشاركت في الجهاد .

والحقيقة أن الفرصة ، ما تزال سانحة لتحرير المرأة ، (المعلم الأول) من الإفساد والإباحية التي أريدت لها ، باسم الحرية ، وتحريرها من التقاليد الجائرة ، التي لا علاقة لها بالتعاليم الشرعية ، لتأخذ دورها في الحياة الإسلامية ، تعلمًا وعملاً ، وتحسن القيام بوظيفتها الأولى ، في التربية والتعليم ، ذلك أن الإسلاميين المعاصرين انشغلوا بالدفاع عن المرأة في الإسلام نظريًا ، عن الاشتغال بإعادة بناء شخصيتها ، وتنشئتها وفقاً لتعاليم الإسلام ، إلى حدٍّ بعيد .

ولا بد لنا من القول : إن التعليم على أهميته ، وخطورة الآثار المترتبة على الخلل في العملية التعليمية ، يبقى منظومة ، في نظام مجتمعي أكبر مساند ، لذلك فالاعتماد على التعليم وحده ، في التغيير ، وعدم إدراك دور المؤسسات المساندة ، التي تسهم بتشكيل المناخ المناسب ، وتنمي القابليات ، قد لا يؤدي الغرض تماماً ، وينتج المبدعين ، لذلك لا بد أن

نعمم حركة التغيير الجذري الشامل ، لتؤمن بها جميع المؤسسات المجتمعية وعندئذ يستطيع التعليم أن يؤدي دوره ، ويسرع الخطا ، ويحقق النتائج ، لذلك نرى ابن خلدون رحمه الله يقول : إن ازدهار العلم ، مرتبط بمدى وفرة العمران .

والعمران الاجتماعي أو الحضاري هو التقدم ، والتكامل في كل أبنية الجسم الاجتماعي الكبير .

إن انعدام المناخ الحضاري أو وفرة العمران ، كما يقول ابن خلدون ، هو الذي يجعل طلبة العالم الإسلامي مبدعين متألقين في الغرب ، متخلفين مأزومين وعجزة معطلين ، في عالم المسلمين .

وبعـــد :

فلعل الكتاب الذي نقدمه ، في سلسلة كتاب الأمـة عن : نظم التعليم عند المحدثين ، يشكل إسهامة بارزة في تبصير المسلم المعاصر ، بنضج المنهج النبوي ، الذي تمثل في مناهج المحدثين ، وغيرهم منذ وقت مبكر ، سواءً في ذلك بناء المرجعية لطالب العلم ، وترتيب تراكم المعرفة ، في إطار النظام التعليمي ، وتشكيل مركز الرؤية ، وذلك بحفظ القرآن أولاً ، قبل الجلوس لتلقي علم الحديث ، أو في استكمال المعرفة في الموطن ، قبل الارتحال ، والابتعاث لطلب العلم ، أو في استنفاد الوسائل الممكنة في توصيل العلم إلى أهله ، أو الخصائص المطلوبة للمدرس ، أو المعلم القدوة ، الذي يعتبر ركيزة العملية التعليمية ، سواء في ذلك اختبار وصوله

إلى المرحلة العلمية المشهود لها ، قبل الجلوس للتعليم ، أو العناية بمظهره وهيئته ، أو طرائق الحصول على المعلومة واختبارها ، أو تحويل الفكر إلى فعل ، والعلم إلى عمل ، أو دور المرأة في نظام التعليم الإسلامي ، أو التخصص في الفن المطلوب ، وعدم قبول الروايات ، وادعاء العلم من غير أهله . هذا التاريخ التعليمي ، الذي لا يزال يشكل سبقاً في بعض جوانبه إلى اليوم ، لكن تبقى المشكلة في عجز المسلم المعاصر ، عن تمثل التراث وفقهه وامتلاك القدرة ، للامتداد به في ضوء فهمه للعصر ، واعتبار ذلك عبادة من أسمى العبادات ، يحكمها الإخلاص لله في النية ، والصواب في الوسيلة ، والاحتساب في الأجر ، والله المستعان .

المقدمة

الحمد لله نحمده ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد :

فلقد ميَّز الله ابن آدم بالعقل على بقية المخلوقات ، وجعل مدار التكليف ، وتحمل أعباء المسؤولية عليه ، وحثه على النظر في ملكوته ، وأثنى على العلماء ، فقال في الذكر الحكيم : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، (الزمر : ٩) . وقال أيضاً : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، (المجادلة : ١١) . وبين أن من يخشاه حق الخشية هم العلماء ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، (فاطر : ٢٨) .

ورويت عن النبي ﷺ ، أحاديث كثيرة ، تدفع بالهمم إلى تلقي العلم ، والتعليم ، وتبين شرف ذلك ، منها :

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له طريقاً إلى الجنة »[١] .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج في

---

(١) جامع الترمذي ، ٣/٣٦٩ ، وقال : هذا حديث حسن ، وانظر صحيح البخاري : علم ١٠ ، وسنن أبي داود : علم ١ ، وسنن ابن ماجة : مقدمة ١٧ ، ومسند أحمد ٢/٢٥٢ ، ٣٢٥ ، ٤٠٧ . عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع »[1] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « نضر الله امرأ سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع »[2] .

وبهذا ، يكون الدين الإسلامي قد فتح الباب على مصراعية أمام المسلمين للتعلم ، والتعليم ، ورغبهم في ذلك ، ونفرهم من الجهل ، فما مرت ثلاثة قرون ، حتى بلغت الأمة الإسلامية الذروة في الحضارة ، حتى تجاوزت باقي الأمم ، وسادتهم في وقت ما كان يتصور للمسلمين كل هذه المكانة ، خصوصاً وأن غيرهم كانت لهم حضارات عريقة .

هذا ما دفعنا إلى البحث في المجال التعليمي ، لأنه المنطلق للإصلاح ، وأساس كل حضارة ، خصوصاً وأن التعليم عند المسلمين له خصوصيات معينة ، جعلته يؤثّر ليس على الخاصة فقط ، ولكن على العامة أيضاً .

إلا أن التعليم عند المسلمين ميدان واسع ، فهو يشمل الحديث ، والفقه ، والأصول ، واللغة ، وبقية العلوم ، وبعبارة أخرى ؛ يشمل كلاً من العلوم الدينية ، والدنيوية .

ورغبة منا في منح الموضوع كل ما يستحق من العناية ، قررنا أن تنصب الدراسة على مجال محدد من حيث الموضوع ، والزمان ، فكان اختيارنا للنظم التعليمية عند المحدثين إلى حدود القرن الثالث ، بغية منا

---

(1) جامع الترمذي ٣/٣٦٩ ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(2) جامع الترمذي ٣/٣٧٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وانظر سنن أبي داود : علم ١٠ ، وسنن ابن ماجة : مقدمة ١٨ ، ومناسك ٧٦ ، وسنن الدارمي : مقدمة ٢٤ ، ومسند أحمد ١/٤٣٧ ، ٣/٢٢٥ ، ٤/٨٠ ، ٨٢ ، ٥/١٨٣ نقلاً عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

البحث عن مدى صيانتهم لسنة رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، والتعرف على كيفية هذه الصيانة قصد الاطمئنان إلى ما نقل إلينا عن رسول الله ﷺ . . .

إن تركيزنا على الجانب الحديثي ، لا يعني بتاتاً أن نظمه التعليمية تختلف تمام الاختلاف عن بقية الجوانب ، فما من شك أن بينها أموراً تشترك فيها ، ولكن لكل مجال مميزاته وخصوصياته .

ولنا الآن أن نتساءل عن السبب الذي من أجله تم تحديد الدراسة بالقرن الثالث ، وليس الخامس مثلاً .

إن المتأمل في تاريخ العلم والعلماء ، يلمس شيوع ظاهرة المدارس في القرن الخامس ، وكيف أصبح لها نظام خاص ، لذلك لم نشأ التعريج على هذه الحقبة ، حتى تكون الدراسة مركزة .

والقرن الثالث ، يعتبره المؤرخون عصر الازدهار ، وفيه كان الإبداع في الدراسات : العلمية ، والأدبية ، والشرعية . لذا أحببنا الوقوف عنده ، لتلمس النظام التعليمي الذي كان سائداً في هاته الفترة ، فما من شك أن المحدثين قد ساهموا في بناء هذه الحضارة ، وأثروا في العلوم الأخرى ، كالأدب ، والتاريخ من حيث المنهج ، ومن حيث النصوص كوقائع تاريخية[1] ، وكفن أدبي رفيع .

إن إسهامات المحدثين في هذا الجانب ، ترجع إلى الوازع الديني ، وإرادتهم العميقة في خدمة ، وصيانة حديث رسول الله ﷺ ، فتم ضبطه ، ونشره بين طلاب العلم .

فما هي السبل التي اتبعوها لتكوين جيل قادر على الصمود في وجه بدع الزمان ؟

---

(١) انظر دراسة مفصلة في هذا الشأن عند الدكتور فاروق حمادة في : المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل ، ص : ١٠٢ ـ ١٥٠ .

وما هي الأهداف المتوخاة من كل نظام يتخذونه ؟

ثم ما هي خصوصيات التعليم عند المحدثين ؟

لا أخفي أن عملاً كهذا ، يتطلب جهداً كبيراً ، وبحثاً طويلاً ، فالنصوص التي يمكن الاعتماد عليها موزعة في بطون الكتب ، وليس في علمي أن أحداً قام بدراسة النظام التعليمي عند المسلمين بشكل متكامل ومرضي في أي مجال كان . . . نعم ، قد نجد كتباً ألفت في طبقات المتعلمين ، تتحدث عن الكتب التي يجب أن يدرسها الطالب ، ليصل إلى الطبقة الأولى ، أو الثانية ، أو الثالثة . . . إلخ . وهذا لا يدخل في صميم الموضوع الذي نحن بصدده ، لا سيما ونحن لا نبحث عما يجب أن يكون ، ولكن عما كان ، وفي فترة محددة . وأمثال المؤلفات السابقة ، كتبت بعد القرن الثالث الهجري .

كان علينا إذن ، لتحقيق ما رسمناه ، أن نجعل البحث في خمسة فصول :

الفصل الأول : يتعلق بحلقات العلم من حيث ظهورها وشيوعها ونظامها .

الفصل الثاني : يتعلق بالمذاكرة وتطور دلالتها وأهدافها ومكانتها .

الفصل الثالث : خاص بالرحلة في طلب الحديث ، ومدى توسع أهدافها ، وقيمتها .

الفصل الرابع : يرتبط بالإشراف التربوي والتعليمي عند المحدثين ، ومزايا ذلك .

الفصل الخامس : يدرس خصائص التعليم عند المحدثين .

المكي أقلاينة

الفصـــــل الأول

حلقات العلم عند المحدثين

في هذا الفصل ، سنتناول بالدراسة مايلي :

المبحث الأول : انتشار حلقات العلم .

المبحث الثـاني : أماكن تلقي العلم .

المبحث الثـالث : مراحل التعلم .

المبحث الـرابـع : الحث على ارتياد مجالس العلم .

المبحث الخامس : انتقاء مجالس العلم .

المبحث السادس : استشـارة أهـل العلم قبـل الجلوس للتحديث .

المبحث السـابع : أنواع المجالس عند المحدثين .
المطلب الأول : مجالس التحديث .
المطلب الثاني : مجالس الإملاء .

المبحث الأول
انتشار حلقات العلم

ترتبط الحلقات العلمية عند المسلمين بظهور الإسلام . ولا نغالي إذا ما قلنا : إنها وجدت منذ بداية الدعوة الإسلامية ، حيث كان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، يجتمع بمن آمن به في دار الأرقم ، يعلمهم الدين الذي ابتغاه الله لهذه الأمة .

كما كان عليه الصلاة والسلام ، يعرض نفسه على كفار قريش ، وغير القرشيين بمكة ، وغيرها ، يطلعهم على خبره ، ودعوته ، فيتبعه من أراد الله به خيراً ، ويكفر به من ختم الله على قلبه .

وقد كان الإسلام ثورة على الواقع الجاهلي ، ثورة على القيم والتقاليد ، والمعتقدات . . جاء ليؤسس واقعًا جديدًا ينبني على الصفاء ، والنقاء وسمو المعتقد ، واقعًا ينبني على إخلاص العبودية لله ، وعدم تدنيسه بأدنى صور الشرك . . وهذا يتطلب بناء صرح جديد متكامل البنيان ، له خصائصه ومميزاته ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا عن طريق الإرشاد والتبليغ . . .

والدعوة إلى الإسلام صورة من صور التعليم ، لأن التعليم إما تزويد بالمعلومات ، أو إلغاء ، أو تقويم لها ، وكذا شأن الدعوة لما فيها من تبليغ للحقائق اليقينية الموحى بها ، وبيان لفساد المعتقدات الضالة ، وتصحيح للمفاهيم . . . لهذه الأسباب ، نفهم دواعي حرص الرسول على الاتصال بالناس ، وعقده للحلقات مع الوفود التي تفد عليه لإعلان

إسلامها ، وبقائها معه أيامًا لتعلم الشرائع ، أو يرسل معها من يعلمها أصول الدين .

في هذا الجو المتطلع إلى المعرفة ، معرفة هذا الدين الجديد ، نستطيع إدراك سبب مفارقة الشباب الأهل والأحباب لصحبة الرسول ﷺ ولو مدة معينة ، إنهم يريدون أن ينهلوا من المنبع الصافي ، منبع النبوة . وفي ذلك ، يروي لنا مالك بن الحويرث : « أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رقيقًا ، فظن أنا قد اشتقنا إلى أهلنا ، وسألنا عمن تركنا في أهلنا ، فأخبرناه ، فقال : ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلموهم ، وبروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم »[1] .

وقد كان الرسول يجلس معهم يعلمهم الشرائع ، ويرونه وهو يطبق ، فأخذوا عنه العلم ، والعمل .

وكان الصحابة يجتمعون حوله ، ليأخذوا عنه تعاليم الدين الحنيف ، وكثيرًا ما نرى هؤلاء الصحابة ، وهم يتدارسون فيما بينهم ، كتاب الله العزيز ، أو حديث الرسول الكريم . من قبيل ذلك ، ما كان يفعله عبدالله بن رواحة ، إذ كان يقول للصحابة : « تعالوا نؤمن ساعة ، فيجلسون إليه ، فيذكّرهم العلم بالله ، والتوحيد في الآخرة . وكان يخلف رسول الله ﷺ ، فربما خرج رسول الله وهم مجتمعون عنده ،

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٢/١١١ ، ١٧٠ ، ١٠/٤٣٧ ـ ٤٣٨ ، ١٣/٢٣١ ، وصحيح مسلم ٥/١٧٤ ، وسنن الدارمي ١/٢٨٦ ، ومسند أحمد ٣/٤٣٦ ، ٥/٥٣ ، سنن النسائي ٢/٩ ، وسنن الدارقطني ١/٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، واللفظ له .

فيسكتون ، فيقعد إليهم ، ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه ، ويقول رسول الله ﷺ : بهذا أمرت »[1] .

هكذا كان الأمر في عهده ﷺ . وبعد وفاته ، اهتم الصحابة بتعليم التابعين كتاب الله ، وتفسيره ، وحديث رسول الله ، والفقه . . . وتكونت حلقات عديدة في الأمصار ، نذكر منها :

- حلقة في المدينة لعبدالله بن عمر - رضي الله عنهما .
- حلقة في مكة لعبدالله بن عباس - رضي الله عنهما .
- حلقة في اليمن لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه .
- حلقة في البصرة لأبي موسى الأشعري - رضي الله عنه .
- حلقة في الكوفة لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه .
- حلقة في مصر لعبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما .

كما كانت لصحابة آخرين حلقات ، أمثال أبي هريرة[2] ، وعمران بن حصين[3] رضي الله عنهما .

وعلى هذه السنة ، سار من جاء بعدهم من التابعين وأتباعهم وبقية العلماء على مد العصور .

وهكذا ، نجد هشام بن عروة[4] ، وقد تحلقت عليه جماعة من الناس ، وهو يحدث في المسجد ، كما نجد في جانب آخر ، حلقة

---

(١) عبدالحي الكتاني : التراتيب الإدارية ٢/٢٢١ .

(٢) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٢٥٥ - ٢٥٨ .

(٣) الكاندهلوي : نفس المرجع ٣/٧١١ .

(٤) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ١٧٥ - ١٧٦ .

ليحيى بن يزيد بن عبدالملك النوفلي[1] . ويحدثنا شعبة بن الحجاج ، فيقول : « دخلت المدينة بعد موت نافع بسنة ، فإذا لمالك حلقة»[2] .

المبحث الثاني
أماكن تلقي العلم

أن المتتبع لأماكن تلقي العلم يجدها متنوعة على الشكل التالي :

١ - الدور :

من الجدير بالذكر ، الإشارة إلى أن أول مكان كان الصحابة يتلقون فيه العلم عن الرسول الكريم ، هو دار الأرقم بن أبي الأرقم[3] ، وقد كانت هناك دور أخرى ، من بينها : منزله عليه الصلاة والسلام . وفي ذلك : يقول الدكتور أحمد شلبي : « وبالإضافة إلى دار الأرقم ، كان الرسول قبل إنشاء المساجد أيضاً يجلس بمنزله بمكة ، ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم . وقد ظلوا كذلك ، إلى أن نزلت بالمدينة الآية الكريمة[4] . . . وكان نزولها بعد إنشاء المساجد . وقد خفف الله بها عن

---

(١) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/٤٥ - ٤٦ .

(٢) ابن حبان : نفس المصدر ١/٤٤ .

(٣) انظر : الدكتور أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص : ٤٦ .

(٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (سورة الأحزاب ، آية : ٥٣) .

الرسول ، ما كان يعاني من تدفق الجموع تدفقاً يكاد يكون متصلاً ، مما لا يدع له وقتاً للراحة ، والاستجمام »[1] .

وبعد وفاته ﷺ ، نجد من الصحابة من يعقد مجالس للعلم في منزله ، أمثال عبدالله بن عباس[2] ، رضي الله عنهما ، وفيما بعد : الإمام مالك بن أنس[3] ، رحمه الله ، وغيرهما .

٢ ـ المساجد[4] :

في واقع الأمر ، لم يكن المسلمون يعتبرون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم ، لما قد يحسه الأهل من إزعاج ، ولما يمكن أن يحسه الطلبة من حرج ، مما يعوق العملية التعليمية . . . لكن ، للضرورة أحكام .

من أجل هذا ، نجدهم يفضلون المساجد على البيوت ، وعلى المدارس ، لما ظهرت ، وفي ذلك ، يقول ابن الحاج : « . . . والمقصود بالتدريس كما تقدم ، إنما هو التبيين للأمة ، وإرشاد الضال ، وتعليمه ، ودلالة الخيرات ، وذلك موجود في المسجد أكثر من المدرسة ضرورة . وإذا كان المسجد أفضل ، فينبغي أن يبادر إلى

---

(١) شلبي : نفس المرجع ، ص : ٤٧ ، إلا أن قوله : « للراحة والاستجمام » لا نجد له مستساغاً ، وقد أشار إلى أنه اعتمد في ذلك على ما ورد في تفسير الرازي وأبي السعود ، إلا أنهما لم يصرحا بما ذهب إليه شلبي .

(٢) انظر : الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٧١١ ـ ٧١٢ .

(٣) انظر : القاضي عياض : الشفا ٢/٩٩ ـ ١٠٠ ، وابن فرحون : الديباج ، ص : ٢٢ ـ ٢٣ . وكذا كان الحال بالنسبة لقبيصة بن ذؤيب ، وأبي غطفان بن طريف المري . انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥/١٧٦ .

(٤) كان بالمدينة تسعة مساجد على عهد الرسول ، انظر : سنن الدارقطني ٢/٨٥ .

الأفضل ، ويترك ما عداه ، اللهم إلا لضرورة . والضرورات لهم أحكام أخر »[1] .

وكثير من النصوص ، توضح أن الرسول الكريم ، كان يعلم أصحابه قواعد الإسلام في المسجد ، كما في رواية واقد بن الحارث بن عوف ، رضي الله عنه ، قال : « بينما هو جالس في المسجد ، والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما ، فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رسول الله ﷺ ، قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فآوى فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه »[2] .

وقد كان الرسول يحث المسلمين على التعلم والتعليم في المساجد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « من جاء مسجدنا هذا يتعلم خيراً أو يعلمه ، فهو كالمجاهد في سبيل الله . ومن جاء بغير هذا ، كان كالرجل يرى الشيء يعجبه ، وليس له . وربما قال : يرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم »[3] .

وعلى هذا النهج سار الصحابة ، ومن جاء بعدهم ، كعبد الله بن رواحة ، وأبي هريرة ، وسلمان الفارسي ، الذي كان يلتف حوله في

---

(١) ابن الحاج الفاسي : المدخل ١/٨٥ ، وقد بين أسباب التفضيل ، مجملها : تعميم التعليم . بعث الهمم لطلب العلم ـ الحصول على بركة حضور مجلس العلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) الحاكم : المستدرك ١/٩١ ، وقال الذهبي في تلخيصه . وهو على شرطهما ، ولا أعلم له علة .

المسجد نحو من ألف شخص ، يسمعون منه حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام[1] .

ومزية عقد المجالس في المساجد ، تتجلى في توسيع نطاق التعليم . وبهذا ، لا يقتصر على الخاصة . لكن هذا لا يمنعنا من القول : إن دقائق العلم له أهله الذين تفرغوا له تفرغاً كاملاً ، ومثل هؤلاء لهم مجالس خاصة يدرسون فيها مثل هذه الأمور ، حتى لا يثقلوا على العامة بمعالجتها في حضورهم ، وحتى لا يفوّت العامة بدورهم على الخاصة من طلاب العلم الدراسة المتعمقة .

٣ ـ الفــلاة والأســواق والطــرقات :

قد تعقد المجالس خارج المدينة ، فلا يجد الناس مسجداً ، فيأخذون العلم في الفلاة عن محدث يلتقون به مثلاً ، أو يتذاكرون بينهم الحديث ، أو آيات الكتاب العزيز ، لأن المذاكرة ضرورية ، لكي يبقى الطالب دومًا وثيق الارتباط بهذا العلم حتى لا ينساه . ولعل هذا ما جعل للمسلمين ميزة كبيرة على باقي الأمم والشعوب ، لما كان يعطي للعلم حقه . . .

وقد يكثر الحضور حتى لا يسعهم المسجد ، فيضطر المحدث إلى التحديث في الضواحي والطرقات ، كما في رواية القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، قال : حدثني أبي ، قال : « كنا نحضر مجلس أبي إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي للحديث ، فكان يجلس على سطح له ، ويمتلىء شارع بالهجيم بالناس ، الذين يحضرون

---

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء ٣/٧٤٢ .

للسماع ، ويبلّغ المستملون عن الهجيمي . قال : وكنت أقوم في السحر ، فأجد الناس فيه . فوجد ثلاثين ألف رجل »[1] .

والأسواق ، من جانب آخر ، ملتقى للخاصة ، والعامة . وبما أن العلماء حريصون على نشر السنة ، والناس متلهفون على تلقي العلم ، والتعرف على السلوك القويم ، والتبرك بالجلوس إلى العلماء ، فإنهم كانوا يستغلون هذه الأماكن للأداء والسماع .

٤ ـ الكتـــــاتيب[2] :

الكتاتيب أماكن خاصة بتعليم الصبيان ، يتلقون فيها تعليمهم الأولي من كتابة ، وحفظ للقرآن .

وقد سئل أنس ، رضي الله عنه ، فقيل له : « كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ـ رضي الله عنهم ؟ قال أنس : كان المؤدب له إجانة ، وكل صبي يأتي كل يوم نوبته ماء طاهراً ، فيصبونه فيها ، فيمحون به ألواحهم . قال أنس : ثم يحفرون حفرة في الأرض ، فيصبون ذلك الماء فينشف »[3] .

وكان المعلم أو المؤدب يأخذ في الغالب على عمله أجراً[4] . . .

---

(١) السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، ص : ١٨ .

(٢) أما فيما يخص المدارس ، فإنها سوف لن تظهر وتشيع إلا في العهد السلجوقي على يد نظام الملك ، في منتصف القرن الخامس الهجري .

(٣) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص : ٣١٦ ، وابن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص : ٧٥ .

(٤) انظر ما قاله ابن مسعود في كتاب آداب المعلمين ، ص : ٧٣ .

وانتشرت الكتاتيب في الشرق والغرب ، فأحمد بن أحمد بن إبراهيم المعلم المتوفى سنة ٣٣٧هـ ، كان معلم كتّاب ، وهو من أهل قرطبة[١] .

ولم يتوقف انتشار الكتاتيب يوماً ما ، فهي ما تزال إلى حد الآن في البوادي ، والمدن تحت أسماء مختلفة .

ولم يستجز العلماء تعليم الصبيان الصغار في المساجد ، لأنهم لا يتحفظون من النجاسة كما قال الإمام مالك ، رحمه الله[٢] ، وكرهو أن يخلط المعلم الجواري مع الغلمان ، لأن ذلك فساد لهم ، كما قال سحنون[٣] .

المبحث الثالث
مراحل التعلم

لقد كان الصبيان يقضون طفولتهم في حفظ القرآن الكريم وإتقانه مدة معينة ، حتى إذا ما تمكنوا منه ، انتقلوا إلى طلب الحديث وكتابته ، أما قبل حفظ القرآن ، فقد وجدنا من يمنع ذلك . فابن غياث لما ذهب إلى الأعمش وطلب منه أن يحدثه ، سأله : « أتحفظ القرآن ؟» ، فأجابه قائلاً : « لا » ، فقال الأعمش : «اذهب فاحفظ القرآن ، ثم هلم

---

(١) انظر : ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/١٤٧ .

(٢) انظر : القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص : ٣٢٢ ، وابن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص : ٨٧ .

(٣) انظر : ابن سحنون · كتاب آداب المعلمين ، ص : ٨٩ ، والقابسي في : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص : ٣١٤ .

أحدثك » . قال ابن غياث : « فذهبت ، فحفظت القرآن ، ثم جئته ، فاستقرأني فقرأته ، فحدثني »[1] .

وعن عبيد بن جناد قال : « عرضت لابن المبارك ، فقلت : امل عليّ . فقال : أقرأت القرآن ؟ قلت : نعم ، قال : اقرأ ، فقرأت عشرًا ، فقال : هل علمت ما اختلف الناس فيه من الوقوف والابتداء ؟ قلت : أبصر الناس بالوقوف والابتداء ، فقال : مدهامتان ؟ قلت : آية ، قال : فالألفاظ ؟ قلت : عبقري وعباهري ، ورفرف ورفارف ، وسرق وسرق . قال : فالحديث ، سمعته من غيري ؟ قلت : نعم . قال : فحدثني ، قال : فحدثته في المناسك بأحاديث ، فقال لي : أحسنت . . . »[2] .

أما فيما يتعلق بالسن التي يبدأ فيها الطالب طلب الحديث ، فقد سار كل أهل بلد على نهج ، بحيث يحققون الأهداف المتوخاة من تمرس الفرد بأسلوب التشريع القرآني ، وخبرته بأحوال الناس ، والتعبد : فمنهم متشدد أخّر سن طلب الحديث ، ومنهم متساهل قدّم سن تحمله . . . وفي ذلك ، قال موسى بن هارون : « أهل البصرة يكتبون لعشر سنين ، وأهل الكوفة لعشرين ، وأهل الشام لثلاثين »[3] .

وعن أبي الأحوص قال : «كان الرجل يتعبد عشرين سنة ، ثم يكتب الحديث »[4] . إلا أننا إذا ألزمنا الناس بسن معينة لطلب الحديث ، فاننا

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٢٠٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ١٨٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص : ١٨٧ .

سنسقط روايات عديد من الصحابة ، سمعوا من الرسول في حال الصغر ، ومات الرسول ولم يبلغوا بعد ؛ كأبي الطفيل ، فإنه ولد عام أحد ، ولم يدرك سوى ثماني سنين من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وكذا مسلمة بن مخلد ، فإنه ولد عام مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ومات وهو ابن عشر[2] .

فهل تسقط روايات أمثال هؤلاء نظرا لأنهم لم يبلغوا سنًا معينة ، يصح فيها تحمل الحديث ، حسب ما ارتآه بعضهم ؟ ؛ مع أن الحسن البصري كان يشجع الأحداث على طلب الحديث ، ويقول : « قدموا الينا أحداثكم ، فانهم أفرغ قلوبا ، وأحفظ لما سمعوا . فمن أراد الله عز وجل أن يتم ذلك له ، أتمه »[3] وبنحو هذا قال غيره من الصحابة والتابعين .

نخلص إذن إلى النتيجة التالية ، وهي أن العبرة ليست بالسن ، ولكن بمدى استيعاب الطالب للقرآن الكريم . من أجل ذلك ، كان جملة من العلماء ، لا يقبلون الأطفال في حلقاتهم ، حتى يسألوهم عن كتاب الله عز وجل .

---

(١) الرامهرمزي : نفس المصدر ، ص : ١٩١ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ١٩٢ .

المبحث الرابع
الحث على ارتياد مجالس العلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على ارتياد مجالس العلم ، لأنها وسيلة من وسائل نشر الوعي الإسلامي السليم ، ورغّب فيها بذكر فضلها ، وأن الملائكة تذكر الحاضرين بخير ، ويذكرهم الله فيمن عنده [١] ، وجعل منزلة طالب العلم كمنزلة المجاهد في سبيل الله [٢] وكل جهد يقوم به للحصول على العلم فتح أمامه الطريق إلى الجنة . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سلك طريقًا فيه يلتمس علمًا ، سهّل الله له طريقًا إلى الجنة [٣] .

وفضل عليه السلام مجلس العلم على العبادة ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين في مسجده : أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من الآخر ، أما هؤلاء ، فيدعون الله ويرغبون إليه ، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء ، فيتعلمون ويعلمون الجاهل . وإنما بعثت معلماً . ثم أقبل

---

(١) انظر : النووي : رياض الصالحين ، ص : ٣٩٥ .

(٢) انظر : الحاكم : المستدرك ١/٩١ .

(٣) الحاكم : المستدرك ١/٨٩ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي على ذلك في تلخيصه .

فجلس معهم » [1] .

وقد عد صلى الله عليه وسلم مجلس العلم بمثابة رياض الجنة ، إذ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس العلم » [2] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « نعم المجلس الذي تذكر فيه الحكمة » [3] .

وما زال الناس يفضلون المجالس العلمية ، ويبينون مزاياها وفضائلها حتى يستميلوا الناس إليها .

المبحث الخامس
انتقاء مجالس العلم

إذا كان الحث على حضور مجالس العلم منذ وقت مبكر جداً ، فإن ضرورة الانتقاء قد فرضت نفسها مع الأيام ، فالناس يتفاوتون في العلم ، كما يتفاوتون في الورع ، هذا التفاوت الذي يدفع بالبعض إلى التحري قبل التكلم ، وبآخرين إلى الكلام دون التحري ، أو عدم الضبط ، أو الكذب .

---

(١) سنن الدارمي ١/٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المنذري : الترغيب والترهيب ١/٨٨ .

(٣) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٧١٢ - ٧١٣ ، وأخرجه ابن عبدالبر في : جامع بيان العلم ١/٥٠ بلفظ : «نعم المجلس مجلس تنشر فيه الحكمة ، وترجى فيه الرحمة»

من أجل ذلك ، نجد الحسن البصري يقول : « انتقوا الإخوان ، والأصحاب ، والمجالس »[1] . . . ومثل هذه التوصيات منقولة أيضاً عن غيره ، ممن يريدون الخير لهذه الأمة .

وقد كان الطلبة يخضعون للتوجيه ، فيبين لهم من هم الأكفياء ، الذين يجب الأخذ عنهم ، كما يبين لهم المتسلطين على هذا الأمر ، وليسوا أهلاً لهذا الشأن ، ممن يريدون الارتزاق ، أو تشويه الحقائق . ذلك أن أرباب العلم معروفون ، وسفلة القوم مميزون .

وقد يفضل شخص على آخرين في علم معين ، لتفوقه فيه ، فيشار إليه بالبنان ، كما في حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما ، إذ قال : « خطب عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الناس بالجابية ، وقال : يا أيها الناس ، من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له والياً وقاسماً »[2] .

ومن البدهي أن مثل هذا التفضيل لا يحط من قيمة المفضول ، أو الذي لم يذكر . ولكن هذا من باب الإشارة إلى من عرفوا بطول الباع ، وتميزهم في علم معين ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ ﴾ (يوسف : ٧٦) .

---

(١) ابن عبدالبر : بهجة المجالس ١/٤٨ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٣٥ : وفيه سليمان ابن داود الحصين ، لم أر من ذكره . كذا في حياة الصحابة ٣/٧٠٤ ـ ٧٠٥ .

المبحث السادس
استشارة أهل العلم قبل الجلوس للتحديث

نظراً لأهمية الحديث الشريف ، فإن بعض العلماء رأوا وجوب استشارة الشيوخ قبل الجلوس للتحديث ، فيكونون بذلك قد ارتضاهم الجميع ، فلا يتعرضون لغمز طاعن في علمهم أو ورعهم ، لهذا ، نجد الشلبي يقول : « من تصدر قبل أوانه ، فقد تصدى لهوانه »[1] .

وعن أبي حنيفة : «من طلب الرياسة في غير حينه ، لم يزل في ذل ما بقي ، واللبيب من صان نفسه عن تعرضها لما يعد فيه نقصًا ، وبتعاطيه ظالماً ، وبإصراره عليه فاسقاً »[2] .

وصيانة للنفس ، وخشية التصدي للهوان لعدم الأهلية للمهمة التي يقوم بها المرء مثلاً ، قال بعض العلماء بضرورة الاستشارة . . .

ومن الذين أخضعوا نفسهم لها : الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ إذ قال : « . . . وليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، وأهل الجهة من المسجد ، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس . وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك[3] .

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص : ٤٥

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣) ابن فرحون : الديباج ، ص : ٢١ .

المبحـــث الســابع
أنـواع المجالـس عند المحـدثين

يمكن للباحث أن يمايز بين نوعين من المجالس عند المحدثين :

١ ـ المجلس الأول : وهو مجلس التحديث ، وفيه يروي المحدث على الملأ أحاديث رسول الله ﷺ ، ويشرحها .

٢ ـ المجلس الثاني : وهو مجلس الإملاء ، وهو أعلى مراتب الرواية .

المطلب الأول : مجالس التحديث :

في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كان الرسول يعقد مجلسًا يذّكر فيه أصحابه بالله عز وجل ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويضرب لهم الأمثال للوعظ ، ويعلمهم دقائق الشريعة . . . وعلى هذا كان الصحابة يسيرون ، مهتدين بهدي الرسول في تطيبه وتجمله ، وطريقة جلسته وتحديثه .

فكيف كان المحدثون يلقون دروسهم ؟ وما هي التزاماتهم ؟ وكيف كانوا يعاملون طلبتهم ؟

هذا ما سنحاول توضيحه من خلال تتبعنا للخطوات التي ينهجها الشيخ ، انطلاقًا من المنزل إلى أن يصل إلى مكان الدرس .

* لما انتشرت الكتب ، أصبح العلماء يعكفون على التحضير في الليل ، قبل الذهاب إلى المجلس في الصباح في حالتي التحديث من حفظ أو كتاب . والتحضير إنما هو للتركيز فقط ، فعادة ما يكون

المحدث حافظاً لكتبه ، لئلا يزاد عليه حرف أو لفظة أو حديث بكامله . . . وخير مثال على ذلك : ابن أبي داود الذي لما ذهب إلى سجستان ، اجتمع عليه الناس ، وسألوه أن يحدثهم ، فقال : « ليس معي كتاب ، فقالوا : ابن أبي داود وكتاب ؟! قال : فأثاروني ، فأمليت عليهم من حفظي ثلاثين ألف حديث[1] . فلما قدمت ، قال البغداديون : لعب بأهل سجستان . ثم فتحوا فتحاً اكتروه بستة دنانير ، ليكتبوا لهم النسخة ، فكتبت ، وجيء بها ، فعرضت على الحافظ ، فخطأوني في ستة أحاديث ، منها ثلاثة رويتها كما سمعت[2] .

وهذا ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) أعاد كتابة جملة من كتبه ، من حفظه بعد أن أحرقت في أشبيلية ، بسبب حسد الحساد . وفي ذلك ، قال[3] :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي	تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي	وينزل إن أنزل ، ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد	وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة	فكم دون ما تبغوه لله من ستر

(١) يعتبر المحدثون الحبر الواحد الذي يروى بعشرين سنداً مثلاً (والسند هو سلسلة الرواة) عشرين حبراً . وهم يبحثون عن الطرق المختلفة له ليتضح لهم مدى صحته ، وكذا مدى ضبط الراوي في الرواية .

(٢) ابن حجر : لسان الميزان ٣/٢٩٦ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ١/١/١٧١ ، وانظر بحثنا : ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية ١/٥٧ ـ ٥٨ .

* وفي الصباح ، لما يعزم الذهاب إلى المجلس ، يتطهر ويتطيب ، وذلك تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ ، وحتى لا يتأذى الحضور برائحة العرق ، والإسلام دين يحض على النظافة .

لهذا ، فإنه يستعمل السواك ، حتى يتخلص من رائحة الفم ، ويقلم أظافره ، لأنها تجمع الأوساخ ، ثم يأخذ من شاربه ، ويسكن شعث رأسه ، حتى يبدو في هيئة مقبولة . . . ويفضل استعمال البيض من الثياب ، لأنها علامة الطهر . . . ويكور العمامة لأنها تيجان العرب . . . ويسرح لحيته بالمشط . . . ويستعمل الطيب إن توافر لديه . . . كل هذا ، تمشيًا مع هدي الرسول الكريم . فقد نقلت عنه أحاديث كثيرة في هذا الشأن[1] .

وأن من صفات العلماء : الالتزام بالتوجيهات النبوية . وهكذا ، نجد قتادة يستحب أن لا يقرأ أحاديث النبي ﷺ ، إلا على وضوء ، ولا يحدث إلا على طهارة[2] . وكان مالك ، والليث بن سعد ، لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران[3] . ولعل ما حكاه مطرف يبرز لنا بجلاء مدى تعظيم العلماء لحديث رسول الله ، فقد «كان إذا أتى الناس مالكاً ، خرجت إليهم الجارية ، فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟[4] فإن قالوا : المسائل ، خرج إليهم ، وإن قالوا :

---

(١) أورد السمعاني مجموعة منها في أدب الإملاء ، ص : ٢٨ - ٣١ .

(٢) القاضي عياض : الشفا ٢/١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) نفس المرجع ٢/١٠٢ ، وانظر ٢/٩٩ .

(٤) المسائل ، أي : الأسئلة الفقهية ، وقد اشتهر في المغرب استعمال لفظ . «النوازل» ، أي الأمور التي تحدث للناس وتنزل بهم ، ثم يتوجهون إلى الفقهاء لاستفتائهم .

الحديث ، دخل مغتسله ، واغتسل ، وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، ولبس ساجه ، وتعمم ، ووضع على رأسه رداءه ، وتلقى له منصة ، فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع . ولا يزال يتبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ[1] .

* وعندما يخرج من منزله متوجهاً إلى المجلس ، يدعو المحدث بدعاء صحيح[2] .

* وهو في طريقه ، يقتصد في مشيه ، فيسير في وقار وسكينة ، بناء على قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰماً ﴾ (الفرقان : ٦٣) . وقد فسر ابن كثير الآية بقوله : « أي : بسكينة ووقار[3] ، من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ (الإسراء : ٣٧) ، (لقمان : ١٨) .

* وإذا لقي أحداً من المسلمين ، ابتدأه بالسلام ، لقوله عليه السلام : « من بدأ بالسلام ، فهو أولى بالله عز وجل ورسوله »[4] .

---

(١) القاضي عياض : نفس المرجع ٢/٩٩ ـ ١٠٠ ، وعند ابن كثير : البداية والنهاية : أن مالكاً كان «إذا أراد أن يحدث ، تطيب وسرح لحيته ، ولبس أحسن ثيابه . وكان يلبس حسناً . وكان نقش خاتمه : حسبي الله ونعم الوكيل» ١٠/١٧٤ .

(٢) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص : ٣١ ـ ١٢ .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣/٣٢٤ .

(٤) انظر مسند أحمد ٥/٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ .

* وعندما يصل إلى مكان الدرس ، يتوجه بالسلام إلى عامة الحضور[1] ، ويتفقد أحوالهم ، لأنه سبيل إلى توثيق عرى المحبة ، ونشر لروح التواضع في المجلس .

* ثم يصلي ركعتين إن لم يكن وقت كراهة .

* وبعد الانتهاء من الصلاة ، يجلس إلى السارية التي تعود الجلوس عندها .

وهو سنة جارية عند العلماء ، ففي كثير من النصوص نجد الإشارة إلى ذلك ، منها قول الرامهرمزي : « ولولا عناية الطالب بضبط الشريعة ، وجمعها ، واستنباطها من معادنها ، لم يتصدر هو وأصحابه إلى السواري ، ولا عقد أهل الفتيا مجالسهم في المسائل . . . »[2] .

وأخرج ابن سعد ، عن هلال بن يساف قال : « قدمت البصرة ، فدخلت المسجد ، فإذا أنا بشيخ أبيض الرأس واللحية ، مستند إلى أسطوانة في حلقة يحدثهم . فسألت : من هذا ؟ قالوا : عمران بن حصين ـ رضي الله عنهما »[3] .

وعن الأعمش قال : «جهدنا بإبراهيم حتى نجلسه إلى سارية ، فأبى»[4] لأنه كان لا يحب الشهرة . وهذا تواضع منه ، قلما نجده في صفوف العلماء اليوم .

---

(١) لقوله عليه السلام : «إذا أتى أحدكم مجلساً فليسلم ، وإذا قام فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الأخرى» ابن عبدالبر : بهجة المجالس ١/٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٢١٩ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/١٠ ـ ١١ .

(٤) سنن الدارمي ١/١٣٢ .

والهدف من الجلوس إلى سارية بعينها ، وملازمتها عند التحديث ، هو أن يكون مكانه معلوماً لدى العامة والخاصة ، يجدونه بسهولة عند الحاجة .

* وأثناء اشتغال المحدث بنفسه ، يهتم نقيبه بنظام المجلس واستنصات الحاضرين[1] ، خصوصاً عندما يكون عددهم هائلاً ، كما يصوره لنا أبو بكر الداودي في قوله : « كان يحضر مجلس المحاملي عشرة آلاف رجل »[2] .

وبهذا ، نفهم مدى أهمية النظام في حلقة الدرس ، فبدونه لا يتأتى للجالس في آخر الصف مثلاً ، أن يسمع ما يقوله المحدث ، والنظام المتبع ، هو أن يجلس الواحد خلف أخيه ، أو جنبه مجتمعين غير متفرقين[3] .

* ويجلس المحدث على مرتفع ، حتى يكون بارزاً يراه الجميع ، فعن أبي السليل القيسي قال : « قدم علينا رجل من أصحاب النبي ﷺ ، فكانوا يجتمعون عليه ، فإذا كثروا ، صعد أعلى ظهر بيت ، فحدثهم »[4] .

وقد كانت تلقى للإمام مالك منصة ، فيجلس عليها[5] .

---

(١) ابن جماعة . تذكرة السامع ، ص ٤١ .

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٣/٨٢٥ .

(٣) انظر حديث أبي هريرة ، أخرجه أبو نعيم في آداب العالم والمتعلم ، والديلمي ، والسيوطي ، كذا عند عبدالحي الكتاني في : التراتيب الإدارية ٢/٢١٧ .

(٤) السمعاني : أدب الإملاء ، ص : ٥٠ .

(٥) القاضي عياض : الشفا ٢/٩٩ ـ ١٠٠ ، وابن فرحون : الديباج ، ص : ٢٣ .

* ومن أدب المحدث في جلوسه أن يستقبل القبلة . فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : « لكل شيء شرف ، وإن شرف المجالس ما استقبل به القبلة »(١) .

* ويحافظ على هيبة ووقار المجلس ، تعظيماً لحديث رسول الله ﷺ . وهذا لا يمنعه من الترحيب بالطلبة ، وتفقد أحوالهم ، والسؤال عن حال من تغيب . وفي ذلك تشجيع لهم وكسب لمحبتهم .

* ثم يأمر المحدث شخصاً حسن الصوت ، أن يقرأ سورة من القرآن ، أو ما تيسر منها لافتتاح الدروس ، تأسياً بأصحاب رسول الله ﷺ . فعن أبي نضرة قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا ليذكروا العلم ، قرأوا سورة »(٢) .

* وبعد الانتهاء من القراءة ، يستنصت المحدث ، أو النقيب الطلبة ، قبل بدء الدرس ، كما فعل الرسول الكريم في حجة الوداع ، إذ استنصت الناس ، ثم قال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض»(٣) .

* وعندما يهم المحدث بالكلام يبسمل ويحمدل ، ويدعو الله أن يوفقه ، ويحفظ لسانه من الزلل ، بناء على قوله عليه السلام : « كل أمر

---

(١) ابن عبدالبر : بهجة المجالس ١/٤١ ، والسمعاني : أدب الإملاء ، ص : ٤٤ .

(٢) السمعاني : أدب الإملاء ، ص : ٤٨ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الفتن ٩٢ ، باب قول النبي ﷺ : «لا ترجعوا بعدي كفاراً » ، وفي كتاب العلم ٣ ، باب الانصات للعلماء ، وفي كتاب المغازي ٦٤ ، وكتاب الديات ٦٧ ، وصحيح مسلم في كتاب الإيمان ١ ، ومسند أحمد ٤/٣٦٣ ، ٣٦٦ .

ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله ، أقطع » ، وفي رواية أخرى : « لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع » ، وفي أخرى : «لا يبدأ فيه ببسمّ الله الرحمن الرحيم »[١] .

* ثم يصلي على رسول الله ﷺ ، ويردف ذلك بالترضي على الصحابة الكرام ، والترحم على الشيوخ .

* وبعد أن ينتهي من هاته المقدمات ، ينتقل إلى التحديث ، أو ينتظر أن يسأل ، أو يطلب أن توجه إليه الأسئلة . فعن الليث بن سعد قال : « كان سعيد بن المسيب يركع ركتين ، ثم يجلس فيجتمع إليه أبناء أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين ، والأنصار ، فلا يجترىء أحد منهم أن يسأله شيئاً إلا أن يبتدئهم بحديث ، أو يجيئه سائل فيسأل فيسمعون »[٢] .

وعن ابن أبي مليكة قال : «دخلنا على ابن عباس ، فقال : سلوني ، فإني قد أصبحت طيبة نفسي ، أخبرت أن الكوكب ذا الذنب قد طلع ، فخشيت أن يكون الدخان ، وقال : الدجال قد طرق ، وسلوني عن سورة البقرة ، وسورة يوسف . قال ابن أبي مريم في حديثه : يخصهما بين السور»[٣] .

---

(١) انظر سنن الدارقطني ١/٢٢٩ ، ومسند أحمد ٢/٣٥٩ ، وسنن ابن ماجة ، حديث رقم : ١٨٩٤ ، وكذا سنن أبي داود ، والنسائي ، وأبي عوانة ، وابن حبان ، والبيهقي . وذكر الشوكاني أنه اختلف في وصله وإرساله ، فرجح النسائي والدارقطني الإرسال . نيل الأوطار ١/٦ . بينما حسنه ابن الصلاح والنووي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

(٢) السمعاني : أدب الإملاء ، ص : ٥٣ .

(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١/١١٥ .

* وقد يبتدىء المحدث درسه للسامعين تشويقاً لهم ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، فعن معاذ قال : «كنت ردف النبي ﷺ ، فقال : هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . . . »(١) .

* وأثناء الحديث ، يتحرى الشيخ ، الرواية عن الثقات(٢) ، خصوصاً وأنه بصدد تعليم أفراد سيكونون علماء هذه الأمة . لذلك ، نجد مالكاً يقول : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه . لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ ، عند هذه الأساطين ـ وأشار إلى المسجد ـ فما أخذت منهم شيئاً ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن» (٣) .

وهذه هي حال من لا يستوثق مما يروي ، إذ يخفت ذكره ، وينحل مجلسه ، ليحل مكانه من هو أهل لذلك . والطلبة بطبعهم لا يأخذون عن غير العدل . لهذا ، نراهم يسألون الناس عن المحدث أسئلة دقيقة وكثيرة ، حتى يعتقد أنهم يريدون أن يزوجوه ، ثم ينظرون إلى صلاته وهيئته ، وبعد ذلك يأتي الحكم الأخير : ألا وهو الأخذ عنه ، أو تركه . فعن أبي العالية ، قال : « كنا نأتي الرجل لنأخذ عنه ، فننظر إذا صلى ، فإن أحسنها جلسنا ، وقلنا : هو لغيرها أحسن ، وإن أساءها قمنا عنه ، وقلنا : هو لغيرها أسوأ » (٤) .

---

(١) متفق عليه ، وذكره ابن عبدالبر في : جامع بيان العلم ١/١١٩ .
(٢) الثقة هو الضابط لما يروي ، المعروف بالأمانة .
(٣) ابن فرحون : الديباج ، ص : ٢١ ، وانظر قول زيد بن أسلم وابن عباس وغيرهما في كتاب المجروحين لابن حبان ١/٢١ ـ ٢٢ .
(٤) سنن الدارمي ١/١١٣ ، وانظر قول إبراهيم عنده أيضاً ١/١١٢ ، وقول المغيرة في كتاب المجروحين لابن حبان ١/٢٣ .

* واحترام المحدثين للحديث أمر عجيب ، حتى إنك لتراهم يمزحون ويضحكون ، فإذا ذكر عندهم الحديث خشعوا [١] . وفي ذلك ، يروي مالك أنه « جاء رجل إلى ابن المسيب ، فسأله عن حديث وهو مضطجع ، فجلس وحدثه . فقال له الرجل ، وددت أنك لم تتعن . فقال : إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع »[٢] .

ويروي عبدالله بن المبارك أنه حضر مجلساً لمالك ، فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويصفر ، ولا يقطع حديث رسول الله . فلما فرغ وتفرق الجميع ، قال له ابن المبارك : « يا أبا عبد الله ، لقد رأيت اليوم منك عجباً . فقال : نعم ، أنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ»[٣] .

* لكن هذا التبجيل لحديث رسول الله ﷺ لم يمنع المحدثين ، منذ عهد مبكر جداً ، أن يبحثوا عن وسائل ترفيهية يستعملونها أثناء التحديث ، لرفع الملل عن النفوس . وعلى هذا ، كان ابن عباس يقول لأصحابه : « إذا أفاض من عنده في الحديث بعد القرآن والتفسير : أحمضوا »[٤] .

---

(١) القاضي عياض : الشفا ٢/٩٩ .

(٢) نفس المرجع ٢/٩٨ .

(٣) ابن فرحون : الديباج ، ص : ٢٣ .

(٤) ابن قتيبة : غريب الحديث ٢/٣٦٦ - أحمضوا : من الحمض ، وهو ما ملح من النبت ، والعرب تلقي الإبل في الخلة ، وهو ما حلا من النبت ، فإذا ملته ألقتها في الحمض . وأراد ابن عباس : إذا مللتم من الحديث والفقه ، فخذوا من الأشعار وأخبار العرب لتروحوا بذلك قلوبكم . الزمخشري : الفائق ١/٢٩٧ ، وابن الأثير : النهاية ١/٤٤١ .

وعن أبي خالد الوالي ، قال : « كنا نجالس أصحاب النبي ﷺ ، فيتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أيامهم في الجاهلية»[1] .

وعن عمر بن عبدالعزيز قال : «تحدثوا بكتاب الله تعالى ، وتجالسوا عليه ، وإذا مللتم ، فحديث من أحاديث الرجال حسن جميل»[2] .

ولهم فيما يفعلونه سند عن رسول الله ﷺ ، فقد كان يلجأ إلى تفسير الأحلام للقوم ، وإلقاء ألغاز عليهم ليبحثوا عن حلها ترفيها لهم . . . كما أنه لم يكن يجعل كل أيامه أيام وعظ وتدريس . فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : « كان النبي ﷺ ، يتخولنا بالموعظة في الأيام ، كراهة السآمة علينا»[3] ، كما نجد ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يذكر الناس في كل خميس[4] ، حتى لا يمل الناس . وما هذا إلا لكي يبقى الطلبة مشدودين إلى العلم ، لأن المحدث إذا أملهم ، اجتنبوا مجلسه[5] ، فيفشل في مهمته السامية ، ألا وهي تكوين رجال قادرين على الدفاع عن هذا الدين من الزيغ وابتداع المبتدعين .

وبعد هذا وذاك ، فإن الشيخ لا يتابع حديثه إلا بعد أن يتأكد من بقاء الطلبة على نشاطهم للاستماع ، أما عندما يحس منهم فتورًا ، فإنه يفهم أن لديهم أشغالاً ، أو أنهم بدأوا يفقدون القدرة على الاستيعاب

---

(١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/١٠٥ .

(٢) ابن عبدالبر : بهجة المجالس ١/١١٦ .

(٣) صحيح البخاري ١/١٦٢ .

(٤) نفس المرجع ١/١٦٣ .

(٥) قال أنس لأبنائه حين قالوا له : «يا أبانا ، ألا تحدثنا كما تحدث الغرباء ؟ قال : أي بني ، أنه من يكثر يهجر » ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/٢٢ .

والتركيز ، فيختصر الكلام لينهي المجلس . فعن الحسن البصري قال : « كان يقال : حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم ، فإذا الفتوا ، فاعلم أن لديهم حاجات»[1] .

وفي هذا إشارة إلى ضرورة الوعي والتركيز اللذين يشترطهما المحدثون سواء في الراوي أو السامع .

* وبصفة عامة ، كان المحدثون يقلون من رواية الحديث ، خصوصاً في العهود الأولى . فالأعمش إذا حدث بثلاثة أحاديث يقول : « قد جاءكم السيل »[2] . ويقول قلابة : « قد أكثرت » ، بينما لم يرو إلا ثلاثة أحاديث . ولا يرضى أبو الوليد هشام بن عبدالملك ، أن يروي أكثر من ذلك[3] .

وعندما استقل عمرو بن أبي سلمة سماعة ثلاثين حديثاً فقط من الأوزاعي خلال أربعة أيام ، رد عليه قائلاً : « وتستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام ؟ ! لقد سار جابر بن عبدالله إلى مصر ، واشترى راحلة ، وركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف ! وأنت تستقل ثلاثين حديثًا في أربعة أيام !»[4] .

ويشير الزهري إلى علة تقليل الحديث بأن «من طلب العلم جملة فاته جملة ، وإنما يدرك العلم حديثاً وحديثين»[5] .

---

(١) سنن الدارمي ١/١١٩ .

(٢) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٥٨٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٥٨٣ .

(٤) الخطيب البغدادي · الرحلة في طلب الحديث ، ص : ١٢٥ - ١٢٦ .

(٥) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ١٥٢ - ٢٥٢ .

وعند التأمل ، يتضح لنا أن من أسباب تقليل الحديث :

١ ـ الحفظ : فإنه يعسر حفظ مجموعة كبيرة من الأحاديث دفعة واحدة ، سنداً ومتناً .

٢ ـ العلم بما يشمله الحديث من الأحكام الفقهية والفضائل . . . ولا ينال ذلك إلا بالتدريج ، شيئاً فشيئاً .

٣ ـ التمكن من معرفة الرواة ومكانتهم ، من حيث العدالة والضبط واتصال بعضهم ببعض ، والرواية بطريقة تفيد صحة تحمل الراوي للحديث ، بهدف الحكم على الخبر صحة وضعفاً ، والترجيح عند تعارض الأخبار .

٤ ـ التمكن من معرفة أسباب اختلاف الأحـاديث ، وبقية العلوم المتعلقة بها .

* إلى جانب قلة التحديث ، كان المحدث يعيد الحديث ثلاث مرات ، تأسياً برسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري في تاريخه عن أبي سلام عن رجل خدم النبي ﷺ ، قال : « إن النبي ﷺ ، كان إذا حدث حديثاً أعاد ثلاثاً »[1] ، حتى يفهم عنه الكلام . قال أبو أمامة الباهلي : إن النبي ﷺ «كان إذا تكلم ، تكلم ثلاثاً لكي يفهم عنه»[2] ، وليتمكن الصحابة من حفظه واستيعابه أيضاً . لهذا كان العلماء يوصون بتكرار

---

(١) البخاري : التاريخ الكبير ج ٢/ق ٢٠١/٢ .

(٢) أخرجه الطبراني ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٩، وعند ابن القيم في : زاد المعاد ٢/٢٥ ، وصحيح البخاري ١/١٨٨ .

وفي لفظ الخطيب في : الفقيه والمتفقة : كان رسول الله ﷺ ، يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه ٢/١٢٦ .

الحديث ، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : « إذا أراد أحدكم أن يروي حديثاً ، فليردده ثلاثاً»[1] .

* وفي رواية الحديث ، يبدأ الشيخ بالسند أولاً ، وبعد ذلك يذكر المتن ، وأحياناً يفعل العكس .

* بعد ذلك ، يعرف بالرجال المذكورين في السند ، ثقات هم ، أم مقدوح فيهم . ومن قبيل ذلك ، ما أورده ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» قال : « ثنا[2] عبدالرحمن ، أنا[3] ابن أبي خيثمة فيما كتب إليّ ، قال : سمعت أبي يقول : الحسن ابن دينار ضعيف»[4] ، وسماعه هذا كان في مجلس . والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب الجرح والتعديل .

* ثم ينتقل إلى الكلمات الغامضة في النص فيشرحها ، كصنيع الزهري عند روايته لحديث : « لا عتيرة ولا فرع في الإسلام ، ولا جلب ، ولا جنب » ، فقد قال : «والعتيرة : ذبح كان لمضر في الجاهلية»[5] .

وفي هذا ، قال سفيان الثوري : «تفسير الحديث خير من الحديث»[6] .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤٨ .

(٢) ثنا : اختصار لكلمة : حدثنا .

(٣) أنا : اختصار لكلمة : أنبأنا ، أو : أخبرنا .

(٤) ابن أبي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ٣/١٢ .

(٥) انظر سنن الدارقطني ٤/٣٠٤ ، حديث رقم ٢٠

(٦) السمعاني : أدب الإملاء ، ص : ٦١ .

أما في حالة ما إذا سئل عن المعنى ولم يفهمه ، فالأولى أن يصرح بأنه لا يدري بدون حرج ، حتى أنهم عدوا : « لا أدري» نصف العلم[١] .

* وفي آخر المطاف ، يقوم المحدث بدراسة فقه الحديث . . . وقد يختبر ذكاء السامعين ، فيطلب منهم توضيح مسألة من المسائل ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، إذ قال مرة لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل الرجل المسلم . حدثوني ما هي ؟ قال عبدالله - أي : ابن عمر - : فوقع الناس في بوادي الشجر . ووقع في نفسي أنها النخلة . قال : فاستحييت . فقالوا : يا رسول ما هي ؟ قال : النخلة . قال عبدالله بن عمر : فحدثت عمر بن الخطاب بالذي وقع في نفسي ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا»[٢] .

وبهذا ، يبث في نفسية السامعين روح البحث والحوار . وهو ما يسمى اليوم بالطريقة الحية أو الحوارية : Methode Active ، وعليها المعتمد في التدريس خصوصاً في المستويات الدنيا والمتوسطة ، يقابلها الطريقة التلقينية Methode Dogmative .

كما أن هذا النوع من الأسئلة يدخل في إطار الوسائل الترفيهية المتبعة لرفع الملل عن الحاضرين .

* ولما ينتهي المحدث من المسألة أو الرواية ، يسكن قليلاً حتى يتكلم من في نفسه سؤال عن شيء استغلق عليه ، علماً بأنه من الخروج عن الأدب مقاطعته أثناء الدرس[٣] .

---

(١) سنن الدارمي ١/٦٣ .

(٢) صحيح البخاري ١/١٤٧ .

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص : ٣٩ .

وباتباع طريقة طرح الأسئلة ، والسكوت بين الفينة والأخرى ، يضمن المحدث فهم الدرس من طرف أكبر عدد ممكن من الطلبة .

* وعندما يريد المحدث إنهاء الدرس ، يدعو بدعاء يختاره . . . فابن سيرين كان يقول : «اللهم لك الشكر»[١] ، وكان هجير قتادة ؛ يقول : «ألا إلى الله تصير الأمور»[٢] ، أما الحسن البصري ، فكان يقول : «سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم»[٣] .

* وبعد الانتهاء من الدعاء ، يحدد للطلبة موعداً يلتقي فيه بهم ، إما صباحاً ، أو بعد العصر ، أو بين العشاءين ، مع بيان ما إذا كان سيخصص ذلك اليوم للتحديث أو الإملاء .

* ثم يكون آخر من يغادر المجلس ، لئلا يزاحم الطلبة ، ولكي يتسنى لمن لديه سؤال أخير أن يوجهه إليه[٤] .

نموذج من مجلس مالك :

في الديباج : «قال الواقدي وغيره : كان مجلسه مجلس وقار وحلم . وكان رجلاً مهيباً نبيلاً ، ليس في مجلسه شيء من المراء ، ولا رفع صوت . إذا سئل عن شيء فأجاب سائله ، لم يقل له : من أين رأيت هذا ؟ . وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين ، فيجيبهم الفئة بعد الفئة . وربما أذن لبعضهم فقرأ عليه . وكان له كاتب قد نسخ كتبه ،

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٥٨٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٥٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص : ٤٥ .

يقال له « حبيب » يقرأ للجماعة ، فليس أحد ممن حضر يدنو منه ، ولا ينظر في كتابه ، ولا يستفهمه ، هيبة وإجلالاً . وكان حبيب إذا أخطأ فتح عليه مالك ـ رحمه الله تعالى ـ وكان ذلك قليلاً . ولم يكن يقرأ كتبه على أحد . وكان كالسلطان : له حاجب يأذن عليه ، فإذا اجتمع الناس ببابه ، أمر آذنه فدعاهم ، فحضر أولاً أصحابه ، فإذا فرغ من يحضر ، أذن للعامة ، وهذا هو المشهور من سماع أصحاب مالك ، أنهم كانوا يقرأون عليه ، إلا يحيى بن بكير ، ذكر أنه سمع الموطأ من مالك أربع عشرة مرة ، وزعم أن أكثرها بقراءة مالك ، وبعضها بالقراءة عليه . وعوتب مالك في تقديمه أصحابه ، فقال : أصحاب جيران رسول الله ﷺ . قال حبيب : وكان إذا جلس جلسة لم يتحول عنها حتى يقوم . وقال مطرف : كان مالك إذا أتاه الناس ، خرجت إليهم الجارية ، فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل . فإن قالوا : المسائل ، خرج إليهم وأفتاهم ، وإن قالوا : الحديث ، قال لهم : أجلسوا ، ودخل مغتسله فاغتسل ، وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، وتعمم ووضع على رأسه طويلة . وتلقى له منصة ، فيخرج إليهم وعليه الخشوع ، ويوضع عود ، فلا يزال يتبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ . وكان لا يوسع لأحد في حلقته ، ولا يرفعه ، ويدعه يجلس حيث انتهى به المجلس . ويقول إذا جلس للتحديث : ليلني منكم ذوو الأحلام والنهى»[١] . وقد كان يضع إحدى رجليه على الأخرى [٢] .

---

(١) ابن فرحون : الديباج ، ص : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٧/٢٣ .

المطلب الثاني : مجالــــس الإمـــلاء :

يعتبر الإملاء أعلى درجات الرواية ، لما فيه من ضبط الحروف والكلمات في الكتب . وقد عقدت مجالس الإملاء منذ عهد الرسول الكريم ، حيث كان يملي كتبه على الكتاب . . . وكتب عبدالله بن عمرو بن العاص صحيفته الصادقة بين يديه[1] . . .

وكانت الكتب التي تكتب بين يديه عليه السلام ، تقرأ عليه ليقومها ، سواء كان وحياً ، أو حديثاً ، أو رسالة . من ذلك ، ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال : «كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي علي ، فإذا فرغت ، قال : اقرأه ، فأقرأه . فإن كان فيه سقط أقامه»[2] .

وعن هبيرة بن عبدالرحمن عن أبيه أو عن رجل[3] قال : « كنا إذا أتينا أنس بن مالك وكثرنا عليه ، أخرج إلينا مجال من كتب ، فقال : هذه كتب سمعتها من رسول الله ﷺ ، وقرأناها عليه»[4] .

وقد عقد بعض الصحابة مجالس الإملاء ، منهم واثلة بن الأسقع . فعن معروف الخياط قال : «رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس

---

(١) انظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١/٧١ . والخطيب : تقييد العلم ، ص : ٧٤ وما بعدها ، والقاضي عياض : الإلماع ، ص : ٢٧ .

(٢) عياض : الالماع ، ص : ١٦١ ، وانظر التفصيل عند السمعاني في : أدب الاملاء ص : ٧٧ .

(٣) الاختلاف في السند ، راجع إلى كون الرواية من طريقين : إحداهما من طريق علي بن محمد بن عبد الله بن بشران ، وثانيتهما من طريق محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد .

(٤) الخطيب : تقييد العلم ، ص : ٩٥ .

الأحاديث وهم يتكتبونها بين يديه»[1] .

كما عقدها من جاء بعدهم ، أمثال شعبة بن الحجاج ، ووكيع بن الجراح ، فكيف كانوا يعقدون هذه المجالس ؟

في الطليعة ، نجد نفس المقدمات ، التي يمر بها المحدث ، حال التحديث من تسليم على الحاضرين ، وصلاة ، وجلوس إلى السارية إذا كان في المسجد ، وحرص على أن يكون ظاهرًا للطلاب ، فيقعد على مرتفع ، ويفتتح بقراءة شخص حسن الصوت سورة من القرآن ، أو ما تيسر منها . . . بعد ذلك ، يستنصت هو أو نقيبه الناس ثم يبدأ في إملاء الأحاديث على الملأ ، بعد البسملة والحمدلة ، والدعاء ، والترحم على الشيوخ ، ثم يختم المجلس بحكايات ونوادر . فعن البرقي ، قال : «الحكايات حبوب تصطاد بها القلوب»[2] .

واكتفاء المحدث بإملائه دون مساعد على تبليغ كلامه ، إنما هو في حالة ما إذا كان الحاضرون معدودين ، فيستطيع أن يسمع صوته من في آخر الحلقة . . .

لكن ، لما اتسعت مجالس الإملاء ، وتدفق الطلبة على الحلقات العلمية من كل حدب وصوب ، أحتاج المملي إلى من يعينه على التبليغ ، وهو ما يطلق عليه اسم : المستملي ، مثل : يحيى بن راشد ،

---

(١) السمعاني : أدب الاملاء ، ص : ١٣ ، وانظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣/٣٨٦ . وقد كان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول : « ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها » . الخطيب : تقييد العلم . ص : ٩١-٩٢ .

(٢) السمعاني : أدب الاملاء ، ص : ٧٠ .

ومحمد بن أبان ، والربيع بن سليمان المرادي ، وعبدالوهاب بن عطاء ، وغيرهم كثير[1].

ومع كثرة الطلبة ، احتاج المملي إلى أكثر من مستملي ، حتى أنه قد وصل عددهم في الرواية إلى ثلاثمائة وستة عشر[2] ، يرددون كلام الشيخ ، حتى يسمع الجميع ، لعدم وجود مكبر الصوت في ذلك الوقت . . .

وكان المستملي يرتقي نخلة مائلة أحياناً ، بسبب كثرة الحاضرين ، ليسمعهم ما يقول الشيخ . فعن عمر بن حفص ، قال : «وجه المعتصم من يحرز مجلس عاصم بن علي بن عاصم في رحبة النخل التي في جامع الرصافة ، قال : وكان عاصم بن علي يجلس على سطح المسقطات ، وينتشر الناس في الرحبة وما يليها ، فيعظم الجمع جداً ، حتى سمعته يوماً يقول : ثنا الليث بن سعد ، ويستعاد . فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون . قال : فكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ويستملي عليها . فبلغ المعتصم كثرة الجمع ، فأمر بحرزهم ، فوجه بقطاعي الغنم ، فحرزوا المجلس عشرين ألفاً ومائة ألف»[3] .

وفي حالة وجود المستملي ، فإنه هو الذي يقوم باستنصات الناس ، ثم يذكر اسم الشيخ وكنيته[4] حتى يكتبها الطلبة في كتبهم ، وذلك بعد

---

(١) السمعاني : نفس المرجع ، ص : ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص : ١٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص : ١٦ ـ ١٧ ، وأيضا ، ص : ٩٦ ، والذهبي : تذكرة الحفاظ ١/٣٧٩ . وقد توفي عاصم في رجب سنة ٢٢١هـ .

(٤) السمعاني : نفس المرجع ، ص :١٠٢ ـ ١٠٣ .

الدعاء لنفسه وللحاضرين[١] .

ثم يقول المستملي للمملي : «من ذكرت ؟ رضي الله عنك» ، أو «رحمك الله»[٢] . فيرد عليه قائلاً : «أخبرنا أبو فلان فلان بن فلان» ، ويروي الحديث ، ويذكر كلمة كلمة ، ويحاكيه المستملي بصوت مرتفع قدر إسماع الحاضرين دون أذايتهم . وهو في ذلك ، يحافظ على اللفظ الذي يسمعه من الشيخ ، دون زيادة أو نقصان أو تحريف[٣] .

وأثناء ترديد المستملي كلام الشيخ ، يقوم هذا الأخير بالاستغفار ، والدعاء . فقد كان يونس بن عبيد يحدث ، ثم يقول : «أستغفر الله»[٤] .

ومن سنة السلف ، عدم إضجار القوم وإملالهم بتمديد وقت الدرس . لذلك ، كانوا يسعون إلى رفع الملل بشتى الوسائل ، سواء بالنوادر أو الأشعار وغيرها . فعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : «إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة»[٥] .

---

(١) السمعاني : نفس المرجع ، ص : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٣) انظر بعض الوقائع التي حدث فيها تحريف بعض الكلمات من طرف المستملي ، ورد الشيخ عليه مصححاً ، عند السمعاني في : أدب الإملاء ، ص : ١٠٥ ـ ١٠٦ . وهذا يدل على وعي الشيخ التام أثناء الإملاء والاستملاء .

(٤) السمعاني : نفس المرجع ، ص : ٧٤ .

(٥) ابن عبدالبر : بهجة المجالس ، ١/١١٥ .

وعندما يريد الشيخ انهاء الدرس ، يشعر بذلك ، كأن يقول : « والله أعلم» ، أو : « هـذا آخره ، ومـا بعده يـأتي إن شاء الله تعـالى ، يوم كذا»[1] .

ثم يدعو دعاء يختاره من الأدعية النبوية ، ويدعـو لمن حضر المجلس ، كما كان يفعل عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما[2] .

وتأتي في النهاية الحلقة الأخيرة من حلقات الدرس ، وهي العرض والمقابلة لتصحيح المكتوب والتيقن من سلامته من الخطأ . . .

وقد طبق العرض منذ عهد رسول الله ﷺ ، أما المقابلة ، فإنها ظهرت وانتشرت بشيوع الكتب . فكان المملي عليه ، أو من حصل على كتاب ، يتوجه إلى الشيخ ، أو إلى من بيده الكتاب الأصل ، ليقابل كتابه به ، حتى يتـأكـد من سـلامـة المنقـول من الـزيـادة أو النقص أو التحريف . . . وهذه أمانة علمية تعد مكرمة في حق السلف .

ففيما يتعلق بالعرض ، كان زيد بن ثابت عندما ينتهي من كتابة ما يملي عليه الرسول من الوحي أو غيره ، يقرأه عليه ، حتى إذا ما كان فيه سقط أقامه[3] .

وقد أكد المحدثون على ضرورة العرض ، فنجد الأوزاعي يقول : « مثـل الـذي يكتب ولا يعـارض ، مثـل الـذي يـدخـل الخـلاء ولا يستنجي»[4] .

---

(١) ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص : ١٠٧ .
(٢) السمعاني : أدب الإملاء ، ص : ١٠٧ .
(٣) القاضي عياض : الإلماع ، ص : ١٦١ .
(٤) انظر : ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/٧٨ ، والقاضي عياض : الإلماع ، ص : ١٦٠ .

وهكذا ، نجدهم يعيبون على من لا يعرض كتبه . فعن السري بن يحيى قال : «سمعت قبيصة يقول : رأيت زائدة يعرض كتبه على سفيان الثوري ، ثم التفت إلى رجل في مجلس فقال : مالك لا تعرض كتبك على الجهابذة كما نعرض ؟!»[1] .

أما فيما يتعلق بالمقابلة ، فإننا نجد أن المحدثين كانوا يجعلونها ضرورية لضبط المكتوب ، مثلها مثل العرض . وفي ذلك ، ما أخرجه الرامهرمزي عن أبي الزناد قال : «في كتاب أبي : هذا ما سمعته من عبدالرحمن بن هرمز الأعرج ، قال : فكلما انقضى حديث ، أدار دارة ، ثم قال : هكذا كل الكتاب»[2] .

ووضع الدارات بهذا الشكل : O ، علامة على أن الحديث قد قوبل إما على كتاب أصل ، أو فرع صحيح ؛ أو عرض على الشيخ ، فأقر صيغته على نحو ما هو مكتوب .

وهنا من يضع النقط داخل الدارة ، قد تصل أحياناً إلى الثلاثة كما في هذا الشكل : ⊙ ، علامة على أن الحديث قد قوبل ثلاث مرات زيادة في الضبط ، كما كان يفعل الإمام أحمد بن حنبل .

وبهذا ، يكون للمحدثين فضل السبق في الضبط والأمانة العلمية ، هذه الأمانة التي نفتقدها اليوم عند الكثير من الباحثين ، فيحرفون النصوص لخدمة أهدافهم ، أولاً يتثبتون مما ينقلون ، وفي هذا خطر كبير على البحث العلمي وأيما خطر !!

---

(١) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/٥٠ .

(٢) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٦٠٦ .

وإذا وجد صاحب الكتاب خطأ عنده ، كأن يكون قد أخطأ في كتابة كلمة مثلاً ، أو وضع كلمة عوض أخرى ، فإنه يضع خطاً عليها ، على ألا يمحو أثرها لتبقي مقرؤة[1] ويعلم الناظر في الكتاب حسن نية صاحبة ، وأنها ليست من فعل فاعل .

وإذا ما وجد كلمة عنده ، وخاف أن تشكل عليه أو على غيره ، فإنه يضع فوقها ، أو تحتها علامة تميزها عن غيرها ، للتأكيد على صحتها ، كما فعل عبدالله بن ادريس الكوفي ، وفي ذلك يروي قائلاً : « لما حدثني شعبة بحديث أبي الحوراء السعدي ، عن الحسن بن علي . كتبت أسفله : (حور عين) ، لئلا أغلط «يعني : فيقرأ : «أبا الجوزاء » لشبهه في الخط[2] .

---

(١) قال الرامهرمزي : « قال أصحابنا : الحك تهمة . وأجود الضروب ألا يطمس المضروب عليه ، بل يخط عليه من فوقه خطاً جيداً بيناً يدل على إبطاله ، ويقرأ من تحته ما خط عليه » ، المحدث الفاصل ، ص : ٦٠٦ .

(٢) القاضي عياض : الإلماع ، ص : ١٥٥ .

الفصـــل الثــــاني

المـذاكـــــــــرة

في هذا الفصل ستتناول بالبحث ما يلي :

- المبحث الأول : فضل المذاكرة .
- المبحث الثاني : المذاكرة في عهد الرسول ﷺ .
- المبحث الثالث : المذاكرة في عهد الصحابة رضي الله عنهم .
- المبحث الرابع : المذاكرة في عهد التابعين ومن بعدهم .
- المبحث الخامس : مكانة المذاكرة .

المبحـــث الأول
فضـــل المـــذاكرة

لقد كانت للمذاكرة مكانة مهمة في المجال التعليمي عند المحدثين . ويستطيع الباحث أن يتلمس جذورها في عهد رسول الله ﷺ ، ومدى رسوخها في عهد الصحابة والتابعين ومن يليهم .

وهي وسيلة من وسائل ترسيخ الحديث في الذهن ، وفهم فقهه .

وهي المنهج الذي يتبعه السلف والخلف ، طلبة وعلماء . . .

وقد نوهوا بها غير ما مرة . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها»[1] .

وجعلوها موازية للصلاة . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « الدراسة صلاة »[2] .

كما جعلوها في مقام تلاوة القرآن . وفي هذا ، أخرج الرامهرمزي عن المعتمر ابن سليمان عن أبيه قال : « كنا أنا وأبو عثمان النهدي وأبو نضرة وأبو مجلز الأبح ، نتذاكر الحديث والسنة ، فقال بعضهم : لو قرأنا سورة ؟ فقالوا : ما نرى أن قراءة سورة أفضل مما نحن فيه»[3] .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلنحاول تتبع أهدافها ورصدها ، لتتبين لنا قيمة المذاكرة في كل جيل ، والتطور الذي يمكن أن يحدث فيها .

المبحث الثاني
المذاكرة في عهد الرسول ﷺ

كما سنرى ، سيتغير مدلول المذاكرة وأهدافها عبر المراحل ، بسبب ما طرأ على بعض المحدثين من طوارىء الزمان من جانب ، وبسبب ادعاء البعض العلم ، وتطاولهم على الفتيا ، في حين أنهم لم يكونوا في مقامها من جانب آخر .

---

(١) انظر : ابن عبدالبر : مامع بيان العلم ١٢٤ ، والكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٧٢٨ .

(٢) انظر ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/٢٢ ، والكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٧٢٨ .

(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ١٧٨ - ١٧٩ .

من أجل هذا كله ، سنجد أن المذاكرة في عهد الرسول الكريم لها مدلول ضيق ، إذا ما قارناها بما ستحمله في المراحل التالية .

وعن طريق رصد هذه الأهداف ، يمكن التمييز بين الأمور الآتية :

١ ـ الحفظ :

يظهر هذا الهدف في كثير من النصوص ، منها ما تبرز الصحابة وهم في حالة مذاكرة ، بعد انتهاء الرسول ﷺ ، من التحديث ، كما في رواية أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : «كنا نكون عند النبي ﷺ ـ وربما كانوا نحوا من ستين إنساناً ـ فيحدثنا رسول الله ﷺ ، ثم يقوم ، فنتراجعه بيننا هذا وهذا . فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا»[1] .

٢ ـ التفقه :

إن الهدف المتوخى من الاطلاع على الخبر وحفظه ، يرتبط بفهم معانيه الجلية والدقيقة ، فمن حفظ وفهم ما استوعبته ذاكرته ، كان كوردة لها رائحة زكية ، أما الذي وقف عند حدود الحفظ دون معرفة المعاني ، فإنه مثل وردة لا رائحة لها .

والدين الإسلامي جاء بمجموعة من المبادىء والمعتقدات السامية ، فيجب أن تدرك ، وعلى المرء أن يتفقه فيما يعي صدره من ذلك . . خصوصاً وأن ما نأمله هو الإصلاح ، ولا إصلاح بدون فهم . . . ولا إصلاح بدون علم . . . ومن يريد الإصلاح بدون أدوات يكاد أن يقع في المحظور . . و ﴿ إنّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم﴾ (الرعد : ١١) .

---

(١) الخطيب : الفقيه والمتفقه ٢/١٢٧ .

لهذا ، نجد الصحابة يتناولون القضايا بالدرس ، قصد فهم روح التشريع الإسلامي ، انطلاقاً من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . وفي ذلك ، ما رواه الجارود ـ رضي الله عنه ـ قال : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ ، في بعض أسفاره ، وفي الظهر قلة ، إذ تذاكر القوم الظهر . فقلت : يا رسول الله ، قد علمّت ما يكفينا ، فقال : وما يكفينا . . . »[1] .

وعن حذيفة بن أسيد قال : «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . فقال : إنها لن تقوم حتى تروا عشر آيات . . . »[2] .

ونلاحظ في هذا العهد ، أنه إذا كانت المذاكرة من أجل الحفظ فهي موكولة غالباً إلى الصحابة ، وأنها عندما تتعلق بالتفقة ، يشرف الرسول الكريم على ذلك ، أما بصفة مباشرة ، أو بطريقة غير مباشرة ، كما في الحالة التي يبلغه فيها فهم أحد الصحابة لآية أو حديث ، فإن الرسول إما أن يقره ، أو ينكر ذلك عليه . . . ومن هذا القبيل ، ما روي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : « خرج رجلان في سفر ، فحضرت الصلاة ، وليس معهما ماء ، فتيمماً صعيدًا طيبًا فصليًا ، ثم وجدا الماء في الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ، ولم يعد الآخر . ثم أتيا رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له . فقال للذي لم يعد : أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين »[3] .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/٨٠ . (٢) مسند أحمد بن حنبل ٤/٦ .

(٢) انظر : سنن أبي داود ١/٢٤١ ، وسنن النسائي ١/٢١٣ ، وسنن الدارمي ١/١٩٠ وسنن الدارقطني ١/١٨٩ ، ومستدرك الحاكم ١/١٧٨ ـ ١٧٩ .

المبحث الثالث
المذاكرة في عهد الصحابة رضي الله عنهم

أدرك الصحابة قيمة المذاكرة ، لذلك نجدهم حريصين عليها حرصًا لا مثيل له ، وينصحون طالبي الحديث بالمداومة عليها ، لمجموعة من الأهداف يبتغون تحقيقها تتجلى في الأمور التالية :

١ ـ الحفظ والتذكر

إذا كان الصحابة في عهد الرسول الكريم يقومون بحفظ الحديث ، فإنهم بعد وفاته أحسوا أكثر من أي وقت مضى بضرورة المحافظة عليه بشتى الوسائل ، وحذروا من ترك المذاكرة ، لأن ذلك سيؤدي إلى تفلت الحديث من ذهن المحدث . فعن ابن بريدة قال : قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : تذاكروا هذا الحديث ، وتزاوروا ، فإنكم إن لم تفعلوا يدرس»[١] .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : «تذاكروا الحديث ، فإن ذكر الحديث حياته»[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : «تذاكروا الحديث ، فإن الحديث يهيج الحديث»[٣] .

---

(١) انظر : مستدرك الحاكم ١/٩٥ ، وسنن الدارمي ١/١٥٠ ، وابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/١٠١ .

(٢) مستدرك الحاكم ١/٩٥ .

(٣) مستدرك الحاكم ١/٩٤ . وسنن الدارمي ١/١٤٦ .

ونستطيع أن نفهم سبب هذا الإصرار على المذاكرة ، خصوصاً إذا ما علمنا قلة الكتابة آنذاك بالمقارنة بالرواية الشفوية ، مع وجود بعض الصحابة الذين يكرهون كتابة الحديث[1] .

والمحافظة على الحديث كانت تقتضي المداومة على التحديث . وهذا ما يصوره لنا ابن عباس رضي الله عنهما ، عندما وجّه نصيحته لطلابه بقوله : «تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم ، فإنه ليس مثل القرآن مجموع محفوظ . وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث ينفلت منكم . ولا يقولن أحدكم : حدثت أمس ، فلا أحدث اليوم ، بل حدث أمس ، ولتحدث اليوم ، ولتحدث غداً»[2] .

٢ ـ التفقة ونشر العلم :

إن مداومة المذاكرة تؤدي إلى تفتق النظر ، واستنباط الأحكام التي يكون المرء قد غفل عنها في بداية أمره . وبهذا يتسع أفق المحدث . ولهذا ، يقال : العلم يزداد بالإنفاق .

ثم إنه قد يحضر المجلس شخص لم يسمع الحديث من قبل ، فينتفع به ، «فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[3] .

---

(١) لمزيد من التفصيل ، انظر : الخطيب : تقييد العلم .

(٢) سنن الدارمي ١/١٤٧ .

(٣) سنن أبي داود ٣/٣٢٢ ، وجامع الترمذي رقم ٤/٢٧٩٤ ، وقال فيه : حديث زيد بن ثابت حديث حسن ، ورقم ٢٧٩٥ من طريق ابن مسعود ، وقال فيه : حسن صحيح ، وسنن ابن ماجة ١/٨٤ ـ ٨٦ ، ومسند أحمد ٤٣٧ .

وفي هذا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «ردوا الحديث واستذكروه ، فإنه إن لم تذكروه ذهب ، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه : قد حدثته مرة . فإنه من كان سمعه يزداد به علماً ، ويسمع من لم يسمع»(١) .

ومن الطبيعي جداً أن يقوم السامع بتطبيق ما ورد عن الرسول الكريم ، وبذلك تنتشر السنة بين الأفراد ، لأن المسلمين حريصون على السير حسب هدي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

٣ ـ تصحيح الأخطاء :

وذلك كأن يسمع صحابي حديثًا من صحابي آخر ، قد غفل عن جزء من المتن مثلاً ، فتغير معناه ، فيحكم بالخطأ على رواية الراوي ، ويصححها له . من ذلك ؛ قول ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : «الشهر تسع وعشرون» ، فلما ذكروا ذلك لعائشة ، قالت : «يرحم الله أبا عبدالرحمن ، إنما قال : الشهر يكون تسعاً وعشرين»(٢) ، وذكر لعائشة قول ابن عمر عن الرسول ﷺ ، في قتلى بدر ، فقالت : « وَهِل ابن عمر»(٣) .

وبهذا ، يتبين أن الصحابة كانوا حريصين على ضبط السنة ضبطاً دقيقًا ، يصل إلى درجة الوقوف عند الحرف الواحد ، فيتكبدون مشاق الرحلة إلى من سمع معهم حديثاً ما للتأكد منه(٤) .

---

(١) سنن الدرامي ١/١٤٧ .

(٢) مسند أحمد ٦/٥١ .

(٣) ابن قتيبة . غريب الحديث ٢/٤٧٢ ، والزمخشري : الفائق ٣/١٨٦ ، وابن الأثير : النهاية ٥/٢٣٣ ، وهِل : غلط .

(٤) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل المتعلق بالرحلة .

المبحث الرابع
المذاكرة في عهد التابعين ومن بعدهم

إذا كان الصحابة قد حذروا من ترك المذاكرة ، فإن التابعين بدورهم سيسيرون على نمطهم ، تورعاً منهم من الوقوع في المحذور ، ومحافظة على الحدث النبوي الشريف . . . من أجل هذا ، سيؤكدون على ضرورة الاقتداء بطريقة الصحابة ، الذين كان لهم السبق في هذا المجال ، وسيبينون للطلاب أن آفة العلم ترك المذاكرة ، فلا نستغرب إذا ما وجدنا هذه الظاهرة شائعة بين القوم . وخير ما يصور ذلك ، ما رواه أيوب بن المتوكل عن عبدالرحمن بن مهدي ، قال : «كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمته ، سأله وتعلم منه ، وإذا لقي من هو دونه في العلم ، علمه وتواضع له . وإذا لقي من هو مثله في العلم ، ذاكره ودارسه»[1] .

وإن المتتبع لهذه المرحلة ، يلمس مدى اتساع دائرة المذاكرة . وهي تعود إلى الأمور التالية :

١ ـ الحفظ

في سبيل الحفظ ، نجد من العلماء من كان يحدث الجواري ، ولو كن علجا لا يفهمن العربية . وما ذلك إلا من أجل الحفظ . وفي هذا الصدد ، نورد ما رواه الحارث بن يزيد الحضرمي ، دليلاً على ما قلناه ،

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٢٠٦

فقد قال : « دخلت على علي بن رباح[1] وهو في الشمس ، وعنده جارية ـ لا أعلم إلا أنه قال : عِلْجة ـ وهو يقول : قال عمرو بن العاص قال فلان ، قال فلان . قلت له : تحدث شك هذه بهذه الأحاديث ؟! فقال : ليست هي بي ، إنما أستذكر حديثي»[2] .

ومنهم من كان يسعى لتحقيق ذلك عن طريق جمع الغلمان وتحديثهم . وفي هذا ، روى الأعمش قال : « كان إسماعيل بن رجاء يجمع صبيان الكتاب يحدثهم ، يتحفظ بذاك»[3] وفي رواية أخرى أخرجها الرامهرمزي أن إسماعيل بن رجاء «كان يجمع غلمان المكاتب ويحدثهم لكيلا ينسى حديثه»[4] .

أما إذا لم يوجد من يذاكره ، فإنه يراجع مع نفسه[5] .

٢ ـ معرفة الأحفظ :

دعت الضرورة إلى معرفة مدى حفظ الراوي ، لأنه ينقل كلام رسول الله ﷺ ، الذي يعتبر تشريعاً للمسلمين ، فيه الحلال ، والحرام . . . لذلك ، كان من اللازم التحري ، ومعرفة الراوي الناقل للخبر ، إذ يترتب على الحكم عليه بالحفظ والإتقان ، أو سوء الحفظ ، أو أنه

---

(١) علي بن رباح اللخمي المصري ، تابعي ، توفي سنة ١١٤هـ ، وقال ابن بكير : توفي علي بن رباح في ولاية ابن الحبحاب . انظر : ابن الفرضي : تاريخ العلماء ١/٣٥٤ ـ ٣٥٦ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ، ١/٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٣) سنن الدارمي ١/١٤٨ .

(٤) الرامهرمزي : المتحدث الفاصل ، ص : ١٩٤ ـ ١٩٥ ، وابن عبد البر : جامع بيان العلم ١/١٠٢ .

(٥) انظر قول ابراهيم النخعي في جامع بيان العلم ١/١٠٢ .

يروي المناكير[1] ، أو أنه تغير بآخره[2] ، قبول روايته أوردها عن طريق الحكم عليها بالصحة أو الضعف ، أو يتم ترجيح أحد الخبرين المتعارضين فيما إذا تفاوت الراويان للخبرين في الحفظ ، فتقدم رواية الثبت الحافظ على غيره ، أو لغيرها من الأسباب .

والذي تغير بأخره إما لكبر سنه ، وتأثير الشيخوخة عليه ، وإما لصدمة نفسية بسبب احتراق كتبه مثلاً ، إذا ثبت أنه روى الحديث وهو في غير حالته الطبيعية ، أما إذا استحال التمييز بين الروايات التي رواها قبل وبعد تغير حاله ، فإن مروياته تطرح جملة وتفصيلاً ، ولا يعمل بها تحرزاً من الوقوع في المحذور .

والتعرف على الأحفظ قد يكون ناتجاً عن كثرة المذاكرة والمعاشرة له ، فيلمس المحدثون قدرته وكفاءته ، كما يبدو من قول عطاء : « كنا نأتي جابر بن عبدالله ، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا ، فكان أبو الزبير أحفظنا لحديثه[3] .

وعن صالح بن محمد قال : «أعلم من أدركت بالحديث وعلله : علي بن المديني ، وأحفظهم له عند المذاكرة : أبو بكر بن أبي شيبة»[4] .

كما يمكن التعرف على الأحفظ عن طريق الاختبار ، كما في رواية ابن أبي حاتم عن أبيه قال : «قدم محمد بن يحيى النيسابوري الري ،

---

(١) الحديث المنكر هو رواية المحدث الضعيف رواية يخالف فيها الراوي الثقة .

(٢) أي : تغير حفظه أو عقله باختلاله في آخر عمره لسبب من الأسباب .

(٣) سنن الدارمي ١/١٤٩ .

(٤) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢/٤٣٣ .

فألقيت عليه ثلاثة عشر حديثاً من حديث الزهري ، فلم يعرف منها إلا ثلاثة أحاديث ، وسائر ذلك لم يكن عنده ، ولم يعرفها»[1] .

وانظر اختبار المحدثين للبخاري (ت ٢٥٦هـ) ، وقلبهم عليه مائة حديث ، ليروا بأنفسهم ما إذا كان سيفطن إلى صنيعهم بالأحاديث أم لا [2] ، حتى يعترفوا له بالمشيخة والحفظ إن فطن ، أو يعدوه دونهم مكانة إن لم يفطن .

٣ ـ معرفـــة الأضبـــط :

كان المحدثون يبحثون عمن يضبط الحديث ضبطًا دقيقًا ، فلا يضيع منه حرفاً ، وفي سبيل ذلك ، كانوا يخضعون المحدث للامتحانات ، التي يظهر بها الجهبذ من غيره . فلا نستغرب إذا ما وجدناهم يسمعون الحديث من الراوي ويكتبونه عنه ، ثم يمهلونه مدة معينة ، ثم يطلبون منه أن يعيد على مسامعهم ذلك الحديث بعينه ، حتى يتبين لهم مقدار ضبطه . وفي ذلك ، يروي عمارة بن القعقاع عن إبراهيم قوله : «إذا حدثتني فحدثني عن أبي زرعة ، فإنه حدثني بحديث ، ثم سألته بعد ذلك بسنة ، فما خرم منها حرفاً»[3] .

وهذا الضبط ليس بالمستبعد عنهم ، وقد تربى هذا الجيل في أكناف الصحابة ، الذين تربوا هم بدورهم في المدرسة المحمدية ، فقد تعلموا منهم أن تبليغ الحديث كلمة كلمة أفضل القربات إلى الله تعالى . . . هذا الجيل الذي لما أمره عليه السلام ، بالتجمع في المسجد ليخطب فيهم ،

---

(١) ابن أبي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ١/٣٥٨ .

(٢) ابن كثير · البداية والنهاية ١١/٢٥ .

(٣) سنن الدارمي ١/١١٢ .

بقوله : «احتشدوا للصلاة غدا ، فإن لي إليكم حاجة» ، قالت جماعة : «دونك أول كلمة يتكلم بها رسول الله ﷺ ، وأنت التي تليها ، لئلا يفوتكم شيء من كلام رسول الله ﷺ»[1] .

وأهمية هذا الضبط تتجلى في كون من يضبط أحاديثه يقدم على غير الضابط . وبهذا ، نحافظ على الدين والدنيا .

٤ ـ معـــرفة الأفقـــه :

يتعرف المحدثون على الأفقه ، في مذاكراتهم التي تتخذ على شكل اختبارات أحيانا ، كما تبين لنا ، يصور لنا ذلك ، ما جاء على لسان إسحاق بن راهوية ، قال : «كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وأصحابنا . فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة ، فيقول يحيى بن معين من بينهم : وطريق كذا ؟ فأقول : أليس قد صح هذا بإجماع منا ؟! فيقولون : نعم . فأقول : ما مراده ؟ ما تفسيره ؟ ما فقهه ؟ فيبقون كلهم إلا أحمد بن حنبل»[2] .

وتكمن أهمية التعرف على الأفقه في ترجيح روايته على غير الفقيه حال الرواية بالمعنى ، لأنه يكون أعلم بمدلول الحديث من غيره .

٥ ـ الاطلاع على مدى سعة علم الراوي .

يظهر مدى علم الراوي من خلال المذاكرة والمعاشرة والاختبار . لذا ، نجد أمثال هذه الأحكام التي تصدر عن كبار علماء الحديث كالزهري في قوله : «كنت إذا سألت عبدالله بن عبدالله فكأنما أفجر

---

(١) عبد الحي الكتاني : التراتيب الادارية ٢/٢٣٦ ، وأخرجه أبو نعيم عن أبي أمامة .

(٢) ابن أبي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ١/٣٧٥ .

بحرًا[١] ، وعنه أيضًا قال : كنت أحسب بأني أصبت العلم فجالست عبدالله ، فكأني كنت في شعب من الشعاب»[٢] .

وعن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ قال : «قدم ابن شهاب المدينة ، فأخذ بيد ربيعة ، ودخلا إلى بيت الديوان . فلما خرجا وقت العصر ، خرج ابن شهاب وهو يقول : ما ظننت أن بالمدينة مثل ربيعة . وخرج ربيعة يقول : ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب»[٣] .

فهذا ابن شهاب ، مع مكانته العلمية ، يصرح بسعة علم الغير دون حرج ، وكذا صدر من ربيعة . . . وهذا تواضع لا نرى له مثيلا في عصرنا .

والنتيجة ، هي أن من علم بكفاءته ، يجله الخاصة والعامة ، ويوقرونه ، ويلزمه طلاب العلم للأخذ عنه والاستفادة منه ، هذا التبجيل الذي دفع بالإمام مسلم ـ صاحب الصحيح ـ وقد جاء إلى البخاري ، إلى أن يقبله بين عينيه ويقول له : «دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله . . .»[٤] .

على أن هذا لا يعني أن الإجلال للعلماء لم يكن إلا في عهد التابعين ، فإنه من أخلاق المسلمين ، ومن أخلاقهم الاعتراف بالمكانة العلمية للفرد . . ونستطيع أن نتمثل ذلك فيما رواه ابن القيم في زاد المعاد ، إذ قال : « . . . وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي ، يذاكر أبا محمد بن

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٥١ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١/١١٠ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٣٤ .

داود الظاهري . ولا يسميه بالفقيه ، فتحاكم إليه يوماً هو وخصم له . فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود ، فتهيأ للحلف . فقال له القاضي إسماعيل : أو تحلف ، ومثلك يحلف ، يا أبا بكر ؟! فقال : وما يمنعني من الحلف وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه ؟! قال : أين ذلك ؟ فسردها أبو بكر . فاستحسن ذلك منه جداً ، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم»[1] .

وقد يظهر عن طريق الاختبار أن الرجل هزيل العلم ، ومع ذلك ينصب نفسه للفتيا ، بل ويتجرأ على الحط من قيمة المحدثين ، كما يبدو فيما رواه الخطيب عن أحمد بن علي الأبار ، قال : «رأيت بالأهواز رجلاً حف شاربه . وأظنه قد اشترى كتباً وتعبأ للفتيا . فذكروا أصحاب الحديث ، فقال : ليسوا بشيء ، وليس يسوون شيئاً ، فقلت له : أنت لا تحسن تصلي . قال : أنا ؟! قلت : نعم ، قلت : إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ ، إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك ؟ ، فسكت . فقلت : وإيش تحفظ عن رسول الله ﷺ ، إذا وضعت يديك على ركبتيك ؟ ، فسكت ، قلت : إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ ، إذا سجدت ؟ فسكت . . »[2] .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١/٤١ . والآيات هي كالتالي :

١ ـ ﴿ ويستنبؤونك أحق هو ، قل إي وربي إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين ﴾ (يونس : ٥٣) .

٢ ـ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة . قل بلى وربي ، لتأتينكم ﴾ (سبأ : ٣) .

٣ ـ ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي ، لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ . (التغابن : ٧) .

(٢) الخطيب : الكفاية ، ص : ٤ ـ ٥ .

٦ ـ معرفة مدى عدالة الرواة :

معرفة مدى عدالة الرواة مهمة جداً عند المحدثين ، لأنه يترتب عليها قبول رواية العدل إذا كان ضابطاً ، ورد رواية الفاسق غير المتأول . وهذا يدخل فيما يسعى بعلم الجرح والتعديل .

وهكذا ، نجد المحدث يجلس مع صاحبه ، ليذكر عيوب راو معين أو محاسنه ، ولا يعدون ذلك من قبيل الغيبة المنهي عنها . فقد كان شعبة بن الحجاج يجيء إلى عمران بن حدير فيقول له : «قم بنا حتى نغتاب ساعة في الله تبارك وتعالى»[١] وفي رواية أخرى عنه : « تعال حتى نغتاب ساعة في الله ـ عز وجل ـ نذكر مساوىء أصحاب الحديث»[٢] ، فيتم التعرف على العدل والفاسق والكذاب .

وبالإضافة إلى مذاكرة الواحد لصاحبه قصد الاستفادة منه ، يذاكر غيره اختباراً ، فيحاسب من ادعى سماع حديث من أحد الرواة بالسنين مثلاً ، أي : سنة وفاة المروي عنه ، وسنة ولادة الراوي ، أو سنة السماع ، وسنة الوفاة ، ودراسة مدى إمكانية لقائهما .

وفي هذا ، ما رواه البسوي عن عفير بن معدان قال : «قدم علينا عمر بن موسى حمص ، فاجتمعنا إليه في المسجد . فجعل يقول : ثنا شيخكم الصالح ، ثنا شيخكم الصالح ، فلما كثر ، قلت له : ومن شيخنا الصالح ؟ سمه لنا حتى تعرفه . فقال : خالد بن معدان ، قلت : في أي سنة لقيته ؟ قال : لقيته سنة ثمان ومائة . قال : وأين لقيته ؟ قال :

---

(١) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/١٩ .

(٢) نفس المصدر ١/١٩ .

لقيته في غزاة أرمينية . قال : قلت له : اتق الله ، عز وجل يا شيخ ، لا تكذب ، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة . فأنت تزعم أنك لقيته بعد موته بأربع سنين . وأزيدك آخر ، إنه لم يكن يغزو أرمينية ، كان يغزو الروم»[1] .

٧ ـ معالجـــة القضـــايا :

كما نجدهم أيضاً في مذاكراتهم يعالجون القضايا المختلفة ، حديثية كانت أو فقهية ، أو غيرها ، سبق أن حدثت ، أو هي مستحدثة . . .

ومن هذا القبيل ، ما رواه الإمام أحمد عن العلاء ، قال : « دخلنا عن أنس ابن مالك بعد الظهر ، فقام يصلي العصر . فلما فرغ من صلاته ، تذاكرنا تعجيل الصلاة ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : «تلك صلاة المنافقين» ـ ثلاث مرات ـ يجلس أحدهم حتى إذا أصفرت الشمس ، وكانت بين قرني الشيطان ، قام نقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[2] .

وعن مالك بن أبي مريم قال : «دخل علينا عبدالرحمن بن غنم ، فتذاكرنا الطلاء ، فقال : حدثني أبو مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : «ليشربن ناس من أمتي الخمر ، يسمونها بغير اسمها»[3] .

---

(١) البسوي : كتاب المعرفة والتاريخ ١/١٥٢

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣/١٤٩ .

(٣) سنن أبي داود ٢/٢٩٥ .

٨ - تصحيح الأخطاء .

يهتم المحدثون بتصحيح أخطاء المخطىء ، سواء تعلق الأمر بالحديث ، أو فقهه . ففيما يتعلق بالفقه ، روى أيوب قال : «تذاكرنا بمكة الرجل يموت . فقلت : عدتها من يوم يأتيها الخبر ، لقول الحسن وقتادة وأصحابنا ، قال : فلقيني طلق بن حبيب العنزي ، فقال : إنك عليّ كريم ، وإنك من أهل بلد ، العين إليهم سريعة ، وإني لست آمن عليك . وإنك قلت قولاً ههنا خلاف قول أهل البلد ، فقلت : وفي ذا اختلاف ؟! قال : نعم ، عدتها من يوم توفي . فلقيت سعيد بن جبير ، فسألته ، فقال : عدتها من يوم توفي ، وسألت مجاهداً ، فقال : عدتها من يوم توفي ، وسألت عطاء بن أبي رياح ، فقال : من يوم توفي . وسألت أبا قلابة فقال : من يوم توفي . وسألت محمد بن سيرين ، فقال : من يوم توفي . قال : وحدثني نافع أن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : من يوم توفي . وسمعت عكرمة يقول : من يوم توفي . قال : وقال جابر بن زيد : من يوم توفي . قال : وكان ابن عباس يقول : من يوم توفي . قال حماد : وسمعت ليثا يحدث عن الحكم أن عبدالله بن مسعود قال : من يوم توفي . قال : وقال علي : من يوم يأتيها الخبر . قال عبدالله بن عبدالرحمن : أقول من يوم توفي[1] .

وقد يعتقد الراوي الذي يحدث من حفظه أنه يحدث من مكتوباته ، فإذا بالسامع يفطن إلى أنه إنما يروي مما ذوكر به في صباه مثلاً ، فينبهه إلى ذلك ، كما حدث لأبي عوانة ، فقد روى عبدالرحمن بن مهدي ، قال : «ذاكرني أبو عوانة بحديث . فقلت : هذا ذوكرت به وأنت شاب ،

---

(١) سنن الدارمي ١/١٥٤ .

فعلق بقلبك ، فظننت أنك قد سمعته»[1] .

وسبب هذه التفرقة ، أن القوم في حال التحديث يتشددون ، أما في حالة المذاكرة فإنهم يتساهلون ، لذلك لا يحتجون بما يسمعونه مذاكرة ، ولا يتحملون إلا ما سمعوا في مجالس التحديث أو الإملاء .

المبحث الخامس
مكانة المذاكرة

هذه الأهداف التي أدرجناها في دراستنا هاته ، كانت هي الدافع الأساس إلى المذاكرة ، لأنه عن طريقها يتم صيانة السنة من الضياع ، وتوسيع أفق الراوي ، وتصحيح الأخطاء ، ومنع الكذب من التسرب إلى حديث رسول الله ﷺ ، فميز المحدثون بين الصحيح ، والضعيف ، والمكذوب . . .

من أجل ذلك ، نجد الزهري يقول : «آفة العلم : النسيان وترك المذاكرة»[2] .

ومن جانب آخر ، نجد الحث على المذاكرة انطلاقاً من عهد الصحابة . فهذا علي بن أبي طالب يقول : «تذاكروا هذا الحديث ، فإن ذكر الحديث حياته»[3] .

وهذا علقمة ـ من التابعين ـ يقول : «تذاكروا الحديث ، فإن ذكره حياته»[4] .

---

(١) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/٥٤ .

(٢) سنن الدارمي ١/١٥٠ .

(٣) مستدرك الحاكم ١/٩٥ ، وسنن الدارمي ١/١٥٠ ، وابن عبد البر : جامع بيان العلم ١/١٠١ .

(٤) سنن الدارمي ١/١٤٧ .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، قال : «تذاكروا ، فإن إحياء الحديث مذاكرته»[1] .

ولا يشترطون تحديث شخص بعينه ، لأن هدف المحدث أولاً وقبل كل شيء حفظ ما لديه من مرويات ، ولو اقتضى ذلك تحديث جارية لا تفهم العربية ، أو مذاكرة الحديث مع نفسه ، فعن إبراهيم النخعي قال : «إنه ليطول علي الليل حتى أصبح فألقاهم ، فربما أُدُسُّه بيني وبين نفسي ، أو أحدث به أهلي» ، قال أبو أسامة ، يعني بقوله : «أدسه» يقول : أحفظه[2] .

وفي رواية أخرى عنه أيضا ، قال : « من سره أن يحفظ الحديث ، فليحدث به ، ولو أن يحدث به من لا يشتهيه»[3] .

فإذا كان الأمر كما ذكرنا ، وجب أن يداوم المحدث على المذاكرة ، حتى يصل إلى درجة عليا من الإتقان والعلم ، سواء كان علماً بالنصوص أو الرواة . . . وناقد من نقاد الحديث ، وهو عبدالرحمن بن مهدي ، يصور هذا المعنى بقوله : « إنما مثل صاحب الحديث مثل السمسار ، إذا غاب عن السوق خمسة أيام ، ذهب عنه علم أسعار ما في السوق »[4] .

فالمذاكرة ، كما تبين ، كان لها دور رائد ، سواء على صعيد التعليم ، أو الذب عن السنة .

فإذا كانت كذلك ، فإن الرحلة في طلب الحديث ، لا تقل عنها أهمية فما هي أبعادها ؟ وما هي شروطها ؟

هذا ما سنحاول دراسته في الفصل التالي .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤٧ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ١/١٠٢ .

(٣) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٢٥٢ .

(٤) الساعاتي : بدائع المنن ١/١٦ .

الفصل الثالث

الرحلة في طلب الحديث

في هذا الفصل ، سنتناول بالدراسة ما يلي :

المبحث الأول
مشروعية الرحلة

إن الرحلة في طلب العلم مهمة جليلة ، فلا غرو أن نجد القرآن الكريم يحث عليها ، إذ يقول الله تعالى في كتابه المبين : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ

كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) .

وقد سأل يزيد بن هارون حماد بن زيد قائلاً : « يا أبا إسماعيل ، هل ذكر الله تعالى أصحاب الحديث في القرآن ؟ فقال : نعم . ألم تسمع إلى قوله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾؟! فهذا في كل من رحل في طلب العلم والفقه ، ورجع به إلى من وراءه ، فعلمه إياه»(١) .

وفسر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : «السائحون» في قوله تعالى : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة : ١١٢) ، بقوله : « هم طلبة الحديث»(٢) .

المبحث الثاني
أهداف الرحلة

أهداف الرحلة بالأساس أهداف تربوية تعليمية(٣) ، ابتداء من عصر الرسول ﷺ . وهي تتعلق إما بطلب العلم ، أو نشره عن طريق البعثات التعليمية . . . وميزة المحدثين أنهم يعتبرون أنفسهم دائماً في مرحلة الطلب . وهذا مما يزيد في تنمية معارفهم ومداركهم .

---

(١) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ٨٦ - ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٨٧ - ٨٨ .

(٣) سوف لن نتكلم عن الرحلات التي وقعت من أجل التجارة أو التعرف على البلدان وأهلها ، لأنه لا يدخل في صميم موضوعنا .

والإخلاص الذي نجده لديهم في خدمة الحديث الشريف ، وتفانيهم في ذلك ، وتحملهم المشاق في سبيل ذلك ، نابع من الوازع الديني ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) ، لأن الحديث تفسير للقرآن ، وصيانة القرآن تقتضي صيانة ما يفسره . .[١] .

وفيما يلي ، سنقوم برصد هذه الدوافع في العصور الأولى ، ليتضح لنا بجلاء مدى خدمة المسلمين لدينهم الحنيف .

المطلب الأول : الرحلة في عهد الرسول :

لقد كانت للرحلة في عهد الرسول عليه السلام أهداف عدة ، نذكرها على الشكل التالي :

١ ـ الدخول في الإسلام :

إذا ما عدنا إلى كتب الحديث والسيرة ، فإننا سنلاحظ تلك الرحلات التي كان يقوم بها الناس ، فرادى ، وعلى شكل وفود ، لزيارة رسول الله ﷺ ، بقصد إعلان إسلامهم .

٢ ـ التعرف على الدين الإسلامي من منبعه :

كما رحل الناس إلى رسول ﷺ ، للتعرف على الدين الإسلامي منه ، بعد ما سمعوا به ، كما هو الشأن بالنسبة للأعرابي ، الذي روى قصته طلحة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ إذ قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في دراسة لنا ، بعنوان : من الاعجاز القرآني صيانة السنة ـ دعوة الحق ـ ديسمبر ١٩٨٩ .

منِ أهل نجد ، ثائر الرأس ، يسمع دوي صوته ، ولا يُفْقَه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . . . »[1] .

وعن أبي رفاعة ، قال : « انتهيت إلى النبي ﷺ ، وهو يخطب ، قال : فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينه »[2] .

٣ ـ التعرف على الأحكام الدينية في واقعة ما :

من الناس من رحل إلى رسول الله ﷺ ، للتعرف على الأحكام الدينية في واقعة ، أو وقائع معينة ، كما في حديث العسيف الذي رواه أبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهني ، قالا : « إن رجلاً من الأعراب ، أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أنشدكَ الله ألا قضيت لي بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ : نعم ، فاقض بيننا بكتاب الله ، وائذن لي . فقال رسول الله ﷺ : قل ، قال : إن ابني كان عسيفاً عند هذا ، فزنى بامرأته . وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة . فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن ما على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله . الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . قال : فغدا عليها ، فاعترفت ، فأمر رسول

---

(١) صحيح البخاري : إيمان ٣٤ ، وصحيح مسلم ، إيمان ٨ ، وموطأ مالك : سفر ٩٤ ، وسنن النسائي : إيمان ٢٣ ، نقلاً عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

(٢) صحيح مسلم ٦/١٦٥ .

الله فرجمت»[1] .

٤ ـ البعثات التعليمية .

كان رسول الله ﷺ ، يهتم بإرسال البعثات التعليمية ، لنشر الدين الإسلامي ، وتبيين قواعده للناس ، وأحياناً يطلب منه أهل بلد ، أن يبعث إليهم من يعلمهم أحكام الدين .

ففيما يتعلق بمبادرته عليه السلام ، يروي عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ : «بعثني رسول الله ﷺ ، إلى حي من قيس ، أعلمهم شرائع الإسلام ، فإذا قوم كأنهم الإبل الوحشية ، طامحة أبصارهم ، ليس لهم هم إلا شاة أو بعير . فانصرفت إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا عمار ، ما عملت ؟ فقصصت عليه قصة القوم ، وأخبرته بما فيهم من السهوة ، فقال : يا عمار ، ألا أخبرك بأعجب منهم ؟! قوم علموا ما جهل أولئك ، ثم سهوا كسهوهم»[2] .

وعن أبي موسى الأشعري أن الرسول ﷺ ، بعث معاذا وأبا موسى ـ رضي الله عنهما ـ إلى اليمن ، وأمرهما أن يعلما الناس القرآن[3] .

أما فيما يخص الطلبات التي وجهت إلى الرسول ليبعث بمن يعلم القوم أمور دينهم ، فإننا نجد أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يروي أنه « جاء

---

(١) صحيح البخاري : صلح ٥ ، شروط ٩ ، إيمان ٣ ، أحكام ٣٩ ، آحاد ١ ، وصحيح مسلم حدود ٢٥ ، وموطأ مالك : حدود ٦ ، ومسند أحمد ٤/١١٥ ـ ١١٦ ، وسنن أبي داود : حدود ٢٥ ، وجامع الترمذي : حدود ٨ ، وسنن النسائي : قضاة ٢٢ ، نقلاً عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

(٢) المنذري : الترغيب والترهيب ١/٩١ .

(٣) أبو نعيم : حلية الأولياء ١/٢٥٦ .

ناس إلى النبي ﷺ ، فقالوا : ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة . فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم « القراء » ، فيهم خالي حرام ، كانوا يقرأون القرآن ، ويتدارسون بالليل ويتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ، ويشترون به الطعام ، لأهل الصفة والفقراء[1] .

المطلب الثاني : الرحلة في عهد الصحابة :

١ ـ الرحلة لسماع الحديث :

لم يستقر الصحابة في مكان واحد ، إما بسبب البعثات التي كانت ترسل إلى البلدان ، أو لغيرها من الدواعي منذ عهد الرسول ﷺ ، وبالتالي ، فمن الطبيعي أن لا يعلم أحد الصحابة ، أو مجموعة منهم بحديث أو أكثر ، لكنهم عندما يسمعون أن أحداً يرويه ، فإنهم يرحلون إليه للسماع منه ، إن كان ما يزال على قيد الحياة ، كما فعل جابر بن عبدالله الذي تحمل مشاق السفر في سبيل سماع حديث واحد ، بلغه أن أحداً يحدث به . وفي ذلك قال : «بلغني عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث سمعه من رسول الله ﷺ ، لم أسمعه منه ، قال : فابتعت بعيراً ، فشددت عليه رحلي ، فسرت إليه شهراً حتى أتيت الشام ، فإذا هو عبدالله بن أنيس الأنصاري . . .»[2] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٥١٤ ، وانظر : صحيح البخاري : وتر ٧ ، مغازي ٢٨ ، وصحيح مسلم ـ مساجد ٣٠١ ، إمارة ١٤٧ ، ومسند أحمد ٣/٢٧٠ ، نقلاً عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

(٢) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ١٩٦ .

٢ ـ الرحلة لضبط الحديث

نظراً لأهمية حديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، اهتم الصحابة بضبطه بشتى الطرق ، منها : الرحلة إلى الراوي ، وفي ذلك عودة إلى المصدر ، وأحياناً يكون الصحابي المرتحل بدوره سمع الحديث الذي يرويه غيره ، إلا أنه يحب أن يتأكد من إتقانه له . وفي ذلك ، يروي عبدالله بن بريدة : «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، رحل إلى فضالة بن عبيد ، وهو بمصر ، فقدم عليه وهو يمد لناقة له . فقال : مرحباً . قال : أما إني لم آتك زائراً ، ولكن سمعت أنا وأنت حديثاً من رسول الله ﷺ ، رجوت أن يكون عندك منه علم ، قال : ما هو ؟ قال : كذا وكذا . . .»[1] .

٣ ـ الرحلة لنشر العلم :

إن نشر الدين الإسلامي رسالة ومسؤولية ملقاة على كاهل العلماء . . . وقد قام الصحابة بهذه المسؤولية خير قيام ، فرحلوا إلى الآفاق في سبيل تبليغ رسالة الله ، واهتم الخلفاء الراشدون بإرسال فقهاء الصحابة إلى الأمصار ، لنشر العلم ، والقضاء بين المختصمين ، وفي ذلك ، روى حارثة بن المضرب قال : «قرأت كتاب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أهل الكوفة : أما بعد ، فإني بعثت إليكم عماراً أميراً ، وعبدالله معلماً ووزيراً . وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما . وإني قد آثرتكم بعبد الله (هو ابن مسعود) على نفسي أثرة»[2] .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤٠ .

(٢) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٦٩٤ .

المطلب الثالث : الرحلة في عهد التابعين ومن بعدهم .

بقيت الرحلة نظاماً تعليمياً متبعاً في عهد التابعين أيضاً . لذلك ، سنقوم بإبراز الأهداف التي كان المحدثون يتوخونها منها :

١ ـ طلب العلم :

في هذه الفترة ، نجد شيوع الرحلة للسماع من الصحابة ، وباقي الشخصيات العلمية ، وكذا الكتابة عنهم . وقد كانوا يعدون بالألوف كما سبقت الإشارة إليه ، عند الكلام عن المجالس عند المحدثين .

٢ ـ الرجوع إلى المصدر :

إن المرء يرجع إلى المصدر قصد الاطمئنان النفسي لما سمع ، لذا ، نجد أمثال هذا النوع من الرحلات التي تهدف السماع مباشرة من الأصل ، إن كان ما يزال على قيد الحياة ، زيادة في التحري ، وطلباً لعلو الإسناد ، كما فعل عامر بن شرحبيل الشعبي الإمام التابعي . فقد خرج إلى مكة في ثلاثة أحاديث ذكرت له ، لعله يلقى رجلاً لقي النبي ﷺ ، ليسمعها منه [1] .

وعن أبي قلابة ، قال : «لقد أقمت في المدينة ثلاثاً ، ما لي حاجة إلا وقد فرغت منها ، إلا أن رجلاً كانوا يتوقعونه ، كان يروي حديثاً ، فأقمت حتى قدم ، فسألته»[2] .

---

(١) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ١٩٦ .

(٢) سنن الدارمي ١/١٤٠ .

وعن أبان بن أبي عياش قال : قال لي أبو معشر الكوفي : «خرجت من الكوفة إليك إلى البصرة في حديث بلغني عنك . قال : فحدثته»[1] .

٣ ـ ضبـط الحديـث :

وهذا ورع من المحدثين ، كان له دوره في الحفاظ على السنة . فلم يكن محدث عدل ضابط ليقبل زيادة حرف أو نقصانه . لذا ، نجد مسروقًا ، وأباسعيد ، كلا منهما رحل لضبط حرف واحد في حديثهما[2] .

٤ ـ سماع الكتاب من صاحبه :

كان طلاب العلم يقومون بالرحلات ، لسماع الكتب من أصحابها ، وعرض مكتوباتهم عنه عليه ، ليقرهم عليها . . . لهذا ، نجدهم لا يكتفون بسماعها عن أحد الرواة عنه ، إذا كان ما يزال حياً ، بل يرحلون إليه ، كصنيع العديد من العلماء ، أمثال يحيى بن يحيى الليثي ، فإنه لم يكتف بسماعه الموطأ للإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ على يد زياد ، الملقب بشبطون في الأندلس . لذا ، نراه يرحل إلى المدينة لسماعه مباشرة من صاحبه .

٥ ـ نشـر العـلم :

كان العلماء يرحلون لنشر العلم إما اختياراً ، وإما بتكليف رسمي على شكل بعثات تعليمية . ومن بين الذين رحلوا بهذه الصفة : حبان بن أبي

---

(١) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٩٨ ، وابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/٩٤ .

جبلة القرشي التابعي ، الذي بعث به عمر بن عبدالعزيز إلى أفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها[1] .

٦ ـ التكوين المستمر :

الإنسان دائماً محتاج إلى مزيد من التعلم ، أما إذا توقف عن مزيد الطلب ، فإنه سيتأخر حتماً عن الركب ، لأنه سيفوته الكثير . لذلك كانت الرحلة في سبيل التكوين المستمر منذ العهد الأول ، لأن المسلم يعتبر نفسه دوماً في مرحلة الطلب ، ويتوق إلى معرفة السنة النبوية ، والأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات وغيرها ، فلا عَجَبَ أن نجدهم حريصين على السماع ، أيا كانت مكانتهم العلمية . وبقي الأمر كذلك . وأُثِر عن المحدثين التزامهم بهذا التكوين . فهذا ابن معين ـ وهو على فراش الموت ـ لا يشتهي شيئاً غير الخلوة والإسناد العالي[2] ، والحسن بن منصور ، يصرح أنه سيبقى طالباً للعلم حتى يتوفاه الله[3] ، وهذا يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي ـ المتوفى سنة ٢٨٨هـ ـ من أهل قرطبة ، نراه يرحل في طلب الحديث ، ويترك حلقته التي يدرس فيها ، وقد كان شيخاً إماماً[4] .

٧ ـ جمع الحديث وكتابته في كتاب :

كان الحديث ينقل عن طريق الرواية الشفوية ـ وهو الأمر الغالب ـ والرواية المكتوبة ، إلى أن دخلت طوراً جديداً ، وهو مرحلة التدوين ،

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ١/١٤٦ . وقد توفي ابن أبي جبلة سنة ١٢٢هـ . وقال ابن وزير : سنة ١٢٥هـ .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٦٨ .

(٣) الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص : ٦٨ .

(٤) ابن الفرضي : تاريخ العلماء ٢/٢٠٠ ـ ٢٠١ .

حيث نادى بضرورة تدوين السنة عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت ٨٥هـ) ، والد عمر بن عبدالعزيز ، ثم سيتكرر هذا النداء من طرف عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ) خشية دروس العلم وذهاب العلماء[١] . وقد كان لهذا النداء ثمرته ، حيث صنفت مؤلفات جليلة ، ضمت بين دفتيها أحاديث رسول الله ﷺ ، ككتب السنن والمسانيد وغيرها ، رحل أصحابها في سبيل ذلك ، وطوّفوا البلاد .

٨ - إفراد الصحيح من الحديث في كتاب :

انتشرت كتب الحديث ، وكان منها ما يضم الصحيح والضعيف ، فأحس المحدثون بضرورة أفراد الصحيح في كتاب ، فتوجهت الأعين إلى البخاري ، لأنه كان مؤهلاً لذلك . فطاف البلدان ، وانتقى الحديث ، وعانى في سبيل ذلك عناءً شديداً ، لا يتحمله إلا الأبطال الصابرين . وأخيراً ، بعد ستة عشر عاماً من الرحلة ، عاد إلى بلده ، وقد جمع حديث بخارى ، وبلخ ، ومرو ، ونيسابور ، والري ، وبغداد والبصرة ، والكوفة ، ومكة ، والمدينة ، ومصر ، ودمشق ، وقيسارية ، وعسقلان ، وحمص . . .[٢] ، فكان أول من ألف في الصحيح .

ثم سار على نهجه تلميذه الإمام مسلم في جمعه للصحيح ، فكان ثاني من صنف فيه .

بعد عرضنا لهذه الأهداف ، يمكن لنا أن نخلص إلى أن الدوافع تتلخص فيما يلي :

---

(١) انظر تفصيل ذلك في دراسة لنا بعنوان : من الإعجاز القرآني في صيانة ا لسنة .

(٢) شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص : ٣١٢ .

١ ـ طلب المعرفة .

٢ ـ ضبط المعرفة .

٣ ـ نشـر المعرفة .

وفي كل عنصر من هذه العناصر ، تحمل المحدثون العناء الشديد ، خصوصاً عندما نلاحظ أن منهم من يرحل من أجل حرف واحد إلى مصر ، وقد يمتد سفره إلى الشهر أو يزيد ، بالإضافة إلى بساطة وسائل النقل ، وهذا راجع إلى عنايتهم بالحديث الشريف ، وتحرزهم من نقل حرف زائد أو إسقاط حرف . وعلى هذا نطلق اسم «الأمانة العلمية» التي نفقدها اليوم عند الكثير من الكتاب والمؤلفين .

المبحـــث الثـــالث
الحث على الرحلة وتوصيات المحدثين

لقد كان التشجيع على الرحلة منذ القديم ، فعن عبدالرحمن القشيري قال : قال داود النبي عليه السلام : «قل لصاحب العلم يتخذ عصا من حديد ، ونعلين من حديد ، ويطلب العلم حتى تنكسر العصا ، وتنخرق النعلان»[١] .

ولما سئل أحمد بن حنبل : «أيرحل الرجل في طلب العُلُوِّ ؟ «أجاب قائلاً : « بلى والله ، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر ـ رضي الله عنه ـ فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر ـ رضي الله عنه فيسمعانه منه»[٢] .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٤٠ .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

وعن عبدالله بن حنبل قال : « سألت أبي ـ رحمه الله ـ عمن طلب العلم ، ترى له أن يلزم رجلاً عنده علم فيكتب عنه ؟ أو ترى أن يرحل إلى المواضع التي فيها العلم ، فيسمع منهم ؟ قال : يرحل ، يكتب عن الكوفيين ، والبصريين ، وأهل المدينة ، ومكة ، يسأل الناس يسمع منهم »[1] .

وقال الزهري لأبي بكر الهذلي : «إني أراك يعجبك الحديث ؟ فقال : « أجل ، قال : أما إنه لا تعجبه إلا ذكور الرجال»[2] وهذا بيان أن من يتعاطى الحديث ، عليه أن يكون صبوراً ، متحملاً للمشاق والسفر الطويل ، ومتحملاً لمزاج الشيوخ أيضاً . فإذا عرف المحدث بالطلب والرحلة ، أخذوا عنه وتزاحموا على بابه لكثرة شيوخه .

وقد اشتهر بالرحلة محدثون مثل : مسروق ، ومحكول ، الذي قال ابن إسحاق عنه : سمعت مكحولاً يقول : «طفت الأرض في طلب العلم»[3] ، وابن المبارك ، الذي قال فيه أحمد بن حنبل : «لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه ، رحل إلى اليمن ، وإلى مصر ، وإلى الشام ، والبصرة ، والكوفة . وكان من رواة العلم ، وأهلاً لذلك[4] » ، وغيرهم كثير .

وعلى هذا ، فقد أصبحت الرحلة ميزة في حق المحدث ، لذلك ، تطالعنا في كتب الرجال[5] صيغة المبالغة في وصفه بالرحلة : فعّال ،

---

(١) أبو بكر الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ٩١ .
(٢) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/٢٦ .
(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١/١٠٨ .
(٤) أبو بكر الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ٩١ .
(٥) أي الكتب المهتمة بالترجمة لهم وبيان ما لهم ن محاسن ، وما عليهم من عيوب .

ونفّالة ، فيقال : رحّال ، رحّالة ، جوّال ، من كبار الرحالة . . .

وتوخيًا لتحقيق ما ذكرنا ، نجد المحدثين يقدمون جملة من التوصيات إلى طلبة العلم ، منها :

١ ـ الأخذ عمن عرف بشدة الطلب بصفة عامة ، لأن ذلك عنوان دقته وتحريه ، قال إبراهيم بن الأشعث : « إذا وجدتم رجلًا معروفاً بشدة الطلب ، ومجالسة الرجال ، فاكتبوا عنه»[1] .

٢ ـ توصيات تتعلق بالحث على الرحلة إلى أشخاص بعينهم ، وعلى سبيل المثال ، ما رواه معمر عن أيوب قال له : «إن كنت راحلاً إلى أحد ، فارحل إلى ابن طاوس ، وإلا فالزم تجارتك»[2] .

وسئل أحمد بن حنبل : «عمن ترى أن يكتب الحديث ؟ «فأجاب : «اخرج إلى أحمد بن يوسف ، فإنه شيخ الإسلام»[3] .

وبهذا ، يتبين أن المحدثين كانوا حريصين على أن يتلقى الطلبة العلم عن الثقات حتى يكون تكوينهم متيناً .

المبحث الرابع
شروط الرحلة

بعد دراسة مجموعة لا بأس بها من النصوص ، تبينت لنا شروط يجب أن يعيها الطالب المرتحل ، فحاولنا ايجازها فيما يلي :

---

(١) ابن حبان : كتاب المجروحين ١/٢٤ .

(٢) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ٨٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٩١ ـ ٩٢ .

١ ـ أن يلم بمبادىء العلم ، وفي طليعتها معرفة القرآن الكريم قراءة وحفظاً ، ومعرفة الحلال والحرام ، وقد كان الشيوخ لا يقبلون الأطفال في حلقاتهم ، حتى يسألوهم عن مدى حفظهم لكتاب الله تعالى .

٢ ـ أن يبدأ الطالب بالعلم الذي ببلده حتى يستوعبه ، عند ذلك ، يجوز له الارتحال إلى بلد آخر لسماع الحديث .

٣ ـ ن لا يرحل من أجل البحث عن الغريب من الحديث كي يتباهى به بين أقرانه ، وأن تكون نيته صالحة .

٤ ـ أن يطلب النصيحة ممن هو أعلم منه ليبين له إلى من يرحل .

٥ ـ أن يتوجه إلى البلد الذي فيه العلماء بكثرة ، حتى يتمكن من الاستفادة من خبرة وعلم أكبر عدد ممكن من الشيوخ ، كما أنه عن طريق ذلك يتبين له خطأ بعض ، فقد قال سعيد بن عامر : كان سلام يذكر عن أيوب قوله : «إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك ، فجالس غيره»[1] .

٦ ـ أن يتوجه إلى البلد الذي فيه صاحب حديث بعينه ، وهذا إنما يحدث بالنسبة للجهابذة ، أو شخص أثر عليه ذلك الحديث تأثيراً بليغاً ، فأراد أن يزداد يقينه بلقاء الراوي .

٧ ـ التحلي بالصبر ـ أي الصبر على المشاق ، والغربة ـ والكياسة في معاملة الشيوخ .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٥٣ .

المبحث الخامس
نتائج الرحلة

بعد استقراء النصوص ، تتبين لنا أهمية الرحلة عند المحدثين ، ويمكن اختصارها في النقاط التالية :

١ ـ توسيع الأفق ، وذلك بالاطلاع على الأحاديث التي لا يعلمها الطالب ، فينتفع بها في دنياه وأخراه .

٢ ـ نشر العلم ، وذلك تطبيقاً لأمر رسول الله ﷺ ، وهذا يدخل في إطار البعثات التعليمية .

٣ ـ الضبط بالرجوع إلى المصدر ، وقد مر بنا أن المحدث قد يرحل بسبب حرف واحد .

٤ ـ علو السند ، حيث تتقلص المسافة الزمنية بين الراوي والرسول عليه الصلاة والسلام ، فيكون الاطمئنان إلى الرواية أدعى مما إذا كان السند نازلاً .

وقد اعتبر الإمام أحمد بن حنبل طلب علو الإسناد من الدين [١] ، وأنه سنة عمن سلف[٢]

ولما سئل أحد المحدثين عن أحب شيء إليه ، قال : «القلب الخالي ، والسند العالي»[٣] .

---

(١) الخطيب : الرحلة في طلب الحديث ، ص : ٨٩ .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٢٥٦ .

(٣) جامع الترمذي : (خاتمة المقدمة) ، ص : ٢ .

أما محمد بن أسلم الطوسي الزاهد العالم ، فقد قال : «قرب الإسناد قرب - أو قربة - إلى الله عز وجل»[1] .

٥ دفع البلاء ، وذلك لاعتقاد المحدثين فرضية الانقطاع للعلم الشريف ، والحفاظ على السنة المطهرة ، وقد ورد عن أبراهيم بن أدهم رضي الله عنه قوله : «إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث»[2] ، لأنهم تتبعوا كلام رسول الله ﷺ ، وحافظوا عليه ، وبالتالي ، كانوا حفاظاً للعقيدة والدين ، وهذا هو الجهاد بعينه .

بعد هذه الإطلالة ، يتضح أن الطالب يتحرى الأخذ عن الشيوخ ، والرحلة إليهم ، وتحمل المشاق ، فما دور ذلك في تكوين الشخصية العلمية ؟

هذا ما سنتناوله بالدراسة في الفصل التالي .

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) نفس المرجع ، ص : ٢٤٧

الفصل الرابع

الإشراف التربوي والتعليمي

عند المحدثين

في هذا الفصل ، سنتناول بالدراسة ما يلي :

المبحث الأول : الإشراف الإلهي على الرسول ﷺ .

المبحث الثاني : الإشراف التربوي والتعليمي للرسول على أصحابه .

المبحث الثاني : الإشراف التربوي والتعليمي للصحابة ومن يليهم على طلبتهم .

المبحث الرابع : الاقتداء .

المبحث الخامس : نتائج الإشراف التربوي والتعليمي .

المبحث السادس : نتائج عدم الأخذ عن الشيوخ .

المبحث الأول

الإشراف الإلهي على الرسول ﷺ

لقد كان الرسول الكريم ، منذ صباه ، تحت الرعاية الإلهية ، حفظه الله من العقد النفسية التي قد تصيب الإنسان من جراء يتمه ،

أو فقره ، أو غيره من الدواعي ، هذه الرعاية التي عبر عنها القرآن أحسن تعبير ، فقد قال تعالى في الذكر الحكيم : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَأَوى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (الضحى : ٦ ـ ٨) . فكان في حياته مثال الخلق الرفيع ، ثم نزل عليه الوحي ، ليؤدي الرسالة التي اختير لها ، فكان أميناً يسير على هديه ، حتى إن عائشة لما سئلت عن خلق النبي ﷺ ، قالت : « القرآن »[1] .

إلا أنه عليه السلام قد يجتهد ويخطىء ، وهنا يتدخل الوحي الإلهي ، مصححا ومقوماً ما صدر منه عليه السلام ، كما حدث عندما جاءه عمرو بن أم مكتوم ـ وهو رجل أعمى ـ طالباً منه أن يعلمه مما علمه الله ، وألح عليه في الطلب ، وهو لا يعلم أن الرسول مقبل على كبار رجال قريش يدعوهم ، فعبس النبي في وجهه ، فنزل الآيات توجهه الوجة السليمة[2] ، قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ (عبس : ١ ـ ٤) . فكان رسول الله ﷺ ، عندما يلتقي بابن أم مكتوم ، يقول له : « مرحباً بالذي عاتبني فيه ربي » .

وتأمل كيف لامه تعالى لافتدائه أسرى بدر[3] في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال ، آية : ٦٨) .

وبهذا ، يتضح أن الرسول ما حاد اجتهاده عن الصواب ، إلا وتدخل

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٦/١٨٨ ، والسائل هو جبير بن نفير .

(٢) انظر أسباب النزول للحاكم ، ص : ٢٩٧ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في أسباب النزول للحاكم ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .

الوحي لإرشاده إلى سواء السبيل . وهذا الإشراف جعل منه النموذج السامي الذي يقتدى به .

المبحث الثاني
الإشراف التربوي والتعليمي للرسول ﷺ على أصحابه

هذا الإشراف يتجلى في كثير من المواضع ، ولا غرو في ذلك ، فقد كان يهدف إلى تكوين جيل قادر على النهوض بالإنسانية ، جيل يكون قدوة لمن بعده ، فكان قرنه خير القرون[1] ، ولما أحس بالطمأنينة إلى سلامة تكوينهم ، أمر الناس باتباع سنة الخلفاء الراشدين الذين يلونه ، إلى جانب الأخذ بسنته[2] .

ومن أوجه الإشراف :

١ ـ تعليم الصحابة مبادىء الدين الحنيف ، فيبين لهم ما كلفوا به ، وما يستحب لهم أن يقوموا به ، وما لا يجوز اقترافه .

٢ ـ تعليم الصحابة أدعية يتوجهون بها إلى الله عز وجل ، رغبة في واسع رحمته . وهو في ذلك يستعمل أسلوب التشويق ، ليستميل وجدان السامع وعقله ، فيكون في كامل وعيه . من ذلك ما ورد عن علي بن أبي

---

(١) صحيح مسلم ١٦/٨٤ ـ ٨٥ ، وانظر صحيح البخاري : المناقب ٢٣ ، ومسند أحمد ٢/٣٧٣ ، ٤١٧ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤/١٢٦ ـ ١٢٧ ، وجامع الترمذي ٣/٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

طالب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي عليه السلام ، قال له : « أعطيك خمسة آلاف شاة ، أو أعلمك خمس كلمات فيهن صلاح دينك ودنياك ؟ فقلت : يا رسول الله ، خمسة آلاف شاة كثير ، ولكن علمني . فقال : قل : اللهم اغفر لي ذنبي ، ووسع لي خلقي ، وطيب لي كسبي ، وقنعني بما رزقتني ، ولا تذهب قلبي إلى شيء صرفته عني »(١) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التعليم ، كان يعتمد على الضبط التام . لهذا نراه عليه السلام ، يهتم بنفسه بتحفيظ أصحابه ، وكثير من النصوص تبين ذلك . منها ما جاء عن ابن عمر ، قال : « كان رسول الله ﷺ ، يعلم الناس التشهد ، كما يعلم المكتب الغلمان »(٢) .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : «كان رسول الله ﷺ ، يعلمنا هذه الكلمات تعليم المكتب الغلمان الكتابة : اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وعذاب القبر »(٣) . وهذا ما يدعونا إلى الاطمئنان إلى ما ينقلون .

٣ ـ تدريبه الصحابة على القضاء واستنباط الأحكام ، حتى يكونوا أهلاً للقيام بهذه المهمة بعده . من ذلك ، ما ورد عن عبدالله بن عمرو قال : « جاء رجلان يختصمان إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ ، لعمرو بن العاص : اقض بينهما ، قال : وأنت ههنا يا رسول الله ؟!

---

(١) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٦٧١ .

(٢) الحطيب : الفقيه والمتفقه ٢/١٢٤ .

(٣) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٣/٥٧٣ .

قال : نعم ، قال : على ما أقضي ؟ قال : إن اجتهدت فأصبت ، لك عشرة أجور ، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر واحد »[1] .

وعن عقبة بن عامر قال : «جاء خصمان إلى رسول الله ﷺ ، يختصمان ، فقال لي : قم يا عقبة ، اقض بينهما . . . »[2] .

وقد تضافرت الأحاديث التي يأمر فيها النبي أصحابه بالقضاء بحضرته ، وهذا يدل على ارتباط العلم بالتطبيق ، إذ لا يكتفي النبي بالكلام المجرد ، بل ينتقل إلى المجال العملي أمام الصحابة ، ويدربهم على ذلك أيضاً .

٤ ـ وصايا الرسول التي كان يوجهها لأصحابه ليتمسكوا بها حتى يكونوا خير نموذج يقتدى به . والأمثلة على ذلك كثيرة .

المبحث الثالث
الإشراف التربوي والتعليمي للصحابة ومن يليهم على طلبتهم

تبين لنا أن الرسول الكريم اهتم بتكوين صحابته تكويناً سليماً ، يؤهلهم لأن يكونوا خلفاً له بعد وفاته . وبالفعل ، تقلد الصحابة هذه المهمة التربوية والتعليمية بكل أمانة وإخلاص .

والجدير بالذكر أنهم مارسوها في حياته عليه السلام ، عندما كان

---

(١) سنن الدارقطني ٤/٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٢٠٣ .

يرسلهم إلى البلدان ، ليعلموا أهلها الدين الإسلامي ، وليقضوا بين المتخاصمين . ومن أوجه الإشراف عند الصحابة :

١ ـ تعليم مبادىء الدين الإسلامي ، ويدخل في ذلك تحفيظ القرآن الكريم ، فعن عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله ﷺ ، يُشْغَل ، فإذا قدم الرجل مهاجراً على رسول الله ﷺ ، دفعه إلى رجل منا ، يعلمه القرآن . . . »[١] .

وعن أبي رجاء العطاردي قال : «كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد ـ مسجد البصرة ـ يقعد حلقاً ، فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين ، يقرئني القرآن ، ومنه أخذت هذه السورة ﴿ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق : ١) . قال أبو رجاء : فكانت أول سورة أنزلت على محمد رسول الله ﷺ »[٢] .

وعن أنس قال : بعثني الأشعري إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال عمر : كيف تركت الأشعري ؟ فقلت له : تركته يعلم الناس القرآن ، فقال : أما إنه كبير ، ولا تسمعها إياه . . . »[٣] .

من هنا ، يتبين أن تحفيظ القرآن وحفظه كان منذ الجيل الأول ، فماذا سيكون الأمر بالنسبة لتعاليم الدين ؟

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عبادة ، قال الحاكم في المستدرك ٣/٣٥٦ بعد ما أخرجه بنحوه : «هذا حديث صحيح الإسناد ، لم يخرجاه» ووافقه الذهبي على ذلك .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/٢٥٦

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤/١٠٨ ـ ١٠٩ ، وهناك أحاديث كثيرة في المسألة .

هنا ، نجد سلامة الكندي يقول : «كان علي يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ . . . »[1] .

وروى ابن الحويرث قال : «قال لنا النبي ﷺ : ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم»[2] .

وعن ابن سيرين قال : «إن أبا بكر ، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ كانا يعلمان الناس الإسلام . . . »[3] .

وهم في ذلك ، يعتمدون على الحفظ والضبط ، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : «كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يعلمنا التشهد على المنبر ، كما يعلم المعلم الغلمان في المكتب»[4] .

وكان الصحابة إذا رأوا شخصًا يخالف السنة ، ينبهونه إلى ذلك ، ويقوّمون له تصرفاته ، فهاهو ذا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يدخل إلى المسجد ، فيرى رجلًا يصلي لا يتم الركوع والسجود . فهل يتركه وشأنه ؟ ليس هذا من خلق المسلمين ، لهذا نجده يتجاذب معه أطراف الحديث ، ويخبره بأنه ليس على الجادة ، ويعلمه كيفية الصلاة[5] .

---

(١) ابن قتيبة : غريب الحديث ٢/١٤٣ .

(٢) صحيح البخاري : أذان ١٨ ، ٤٩ ، أدب ٢٧ ، آحاد ١ ، وصحيح مسلم : مساجد ٢٩٢ ، ومسند أحمد ٣/٤٣٦ و٥/٥٣ ، وسنن النسائي ٢/٩ ، وسنن الدارمي ١/٢٨٦ ، وسنن الدارقطني ١/٢٧٢ ـ ٢٧٣

(٣) الكاندهلوي . حياة الصحابة ٣/٦٦٧ ـ ٦٦٨ .

(٤) نفس المرجع ، ٣/٦٦٩ ـ ٦٧٠ .

(٥) نفس المرجع ٣/٦٧٠ ـ ٦٧١ .

٢ ـ توصية الطلبة بما يصلح لهم في المعاش والمعاد ، من ذلك ما ورد عن أبي جحيفة ـ رضي الله عنه ـ قال : «كان يقال : جالس الكبراء ، وخالل العلماء ، وخالط الحكماء»[١] .

وبهذا يتضح أن الصحابة عملوا جهدهم على نشر التعاليم الدينية ، تحديثًا وقضاء وتفقيها وتوعية ، مما جعلنا نطمئن إلى الجيل الذي يليهم ، وإلى أن الدور الذي سيقوم به يرتكز على أساس متين ، فنراهم يبثون العلم في الأصقاع الإسلامية ، في الحضر والبوادي . فهذا ابن شهاب الزهري يحدث الأعراب[٢] ، وذلك حماد بن سلمة ، يجمع حوله الصبيان يحدثهم ، فلما قيل له : « يا أبا سلمة ، ما هذا ؟ قال : هؤلاء الذين يحفظون عليك أمر دينك»[٣] ، وكان إسماعيل بن رجاء يفعل نفس الشيء[٤] ولا يقفون عند حد التحديث ، بل يأمرونهم بالكتابة ، كما يروي عتبة بن أبي حكيم الهمداني ، إذ قال : « كنت عند عطاء بن أبي رباح ، ونحن غلمان ، فقال : يا غلمان ، تعالوا اكتبوا ، فمن كان منكم لا يحسن ، كتبنا له ، ومن لم يكن معه قرطاس ، أعطيناه من عندنا»[٥] .

وهذا هو التفاني في خدمة العلم ، لأنه علم يربط الشخص بالعالم الآخر ، عالم فيه جزاء وعقاب ، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت : ٣٣) ، كما يربطه

---

(١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/١٢٦ .
(٢) سنن الدارمي ١/١٤٨ .
(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٤) سنن الدارمي ، ١/١٤٨ .
(٥) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص ٣٧٣ .

بالعالم الدنيوي . لذلك نجدهم يوصون طلبتهم بإدمان الطلب ، وحسن السلوك ، حتى يكونوا مثالاً يقتدى به . ففي حديث الأحنف : «تبادلوا تحابو ، وتهادوا تذهب الإحن والسخائم ، وإياكم وحمية الأوغاب »[1] وعن أبي عاصم النبيل قال : « من طلب الحديث ، فقد طلب أعلى أمور الدين ، فيجب أن يكون خير الناس »[2] لأنهم أئمة يقتدى بهم .

المبحـــث الرابـــع
الاقتـــــــــــــــداء

نزل القرآن الكريم مُركّزًا على مبدأ الاقتداء بالرسول ﷺ ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين . وما ذلك إلا لأنه يجعل الفرد يسير على الهدي الإلهي ، بعيداً عن الزيغ والهوى . من ذلك ، قوله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ (الممتحنة : ٤) .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

(الأحزاب : ٢١) .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

(الأنعام : ٩٠) .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ . . . ﴾ .

(الممتحنة : ٦) .

---

(١) ابن قتيبة : غريب الحديث ٢/٥٣١ ، والزمخشري : الفائق ١/٥٨٣ ، والأوغاب أراذل الناس ، السخيمة : الحقد .

(٢) ابن الصلاح : علوم الحديث ، ص : ٢٤٦ .

ولهذا ، وجدنا الصحابة يتبعون آثار النبي ﷺ ، اتباعًا لا مثيل له ، ولا يفعلون شيئاً حتى يرونه يفعله . وما علينا ألا أن نتأمل هذه الواقعة لنتبين ذلك ، فعن إياس بن سلمة عن أبيه ، قال : «بعث النبي ﷺ ، عثمان بن عفان إلى مكة ، فأجاره أبان بن سعيد ، وحمله على سرجه ، وردفه حتى قدم به مكة ، فقال : يا ابن عم ، أراك متخشعاً ! أسبل إزارك كما يسبل قومك . قال : هكذا يأتزر صاحبنا إلى أنصاف ساقيه . قال : يا ابن عم ، طف بالبيت ، قال : إنا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتبع أثره»[1] .

وأخرج مسلم عن سعيد بن يسار أنه قال : « كنت أسير مع ابن عمر بطريق مكة ، قال سعيد : فلما خشيت الصبح ، نزلت فأوترت ، ثم أدركته . فقال لي ابن عمر : أين كنت ؟ فقلت : خشيت الصبح ، نزلت فأوترت . فقال عبدالله : أليس لك في رسول الله ﷺ ، أسوة ؟! فقلت : بلى ، والله ، قال : إن رسول الله ﷺ كان يوتر على البعير »[2] .

واتباع الصحابة للرسول في أفعاله وحركاته وسكناته ، واقتداؤهم به ، هو في واقع الأمر اتباع للسنة ، وامتثال لقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر : ٧) ، هذا الاقتداء الذي جعل ابن عمر يتتبع آثار الرسول الكريم في كل مكان ، حتى إنه ﷺ ، نزل تحت شجرة ، فكان ابن عمر يتعاهدها ، فيصب في أصلها الماء لكي لا تيبس[3] فيأتيها ليستريح في ظلها كما فعل الرسول ﷺ .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٤٦١ .

(٢) صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافر وقصرها ، باب ٤ حديث ٣٦ .

(٣) الكاندهلوي : حياة الصحابة ٢/٦٥٥ .

وقد ترسخ مبدأ الاقتداء في نفسية الصحابة وغيرهم من الأئمة الذين تفتخر بهم الأمة الإسلامية ، فكانوا يتخلقون بالأخلاق النبوية ، ليقدموا النموذج الصالح لطلبتهم ، حتى يسيروا سيرهم ، ويقتدوا بهم ، ويوصون بضرورة ذلك . فها نحن نرى الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول : « من كان منكم متأسياً ، فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم »[1] هذه إذن ، هي الأسباب التي يجب من أجلها السير على هدي الصحابة .

ولننتقل إلى قول مصعب بن سعد حين يقول : «كان أبي إذا صلى في المسجد تجوز ، وأتم الركوع والسجود ، وإذا صلى في البيت أطال الركوع والسجود والصلاة . قلت : يا أبتاه ، إذا صليت في المسجد تجوزت ، وإذا صليت في البيت أطلت ؟ قال : يا بني ، إنا أئمة يقتدى بنا »[2] . وهذا يصور الفهم العميق للسنة وللاقتداء ، فقد انطلق سعد من فهمه لروح الشريعة الذي يرفع الحرج ، وتصرف على وفقه ، حتى يسير الناس على هداه .

فالاقتداء إذن ، اتباع لسلوك سام ، لنموذج خضع لتربية مثالية .

---

(١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/٩٧ ، وورد بمعناه عن ابن عمر في حلية أبي نعيم ١/٣٠٥ .

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/١٨٢ : رجاله رجال الصحيح .

المبحث الخامس
نتائج الإشراف التربوي والتعليمي

في المباحث السابقة ، تبين لنا كيف أن الرسول ﷺ ، كان تحت العناية الإلهية ، توجهه وتحفظه من الزيغ ، وكيف أنه بدوره ، اعتنى بتكوين أصحابه ، تكويناً سليماً ، حتى أصبحوا أساتذة الجيل التالي ، وهكذا الأمر بالنسبة لهم .

وأن المتأمل في النصوص المتفرقة هنا وهناك ، يستطيع أن يخرج بالنتائج التالية :

١ - تكوين الطالب تكويناً سليماً في الفن الذي يدرسه . ذلك أن الشيخ يكون عادة ملماً به ، محيطاً بدقائقه ، خبيراً بالرجال . فهو عندما يروي لطلبته حديثاً ، يذكر سنده ، ويبين عدالة وضبط كل راو من الرواة ، ودرجة الحديث ، من حيث الصحة ، أو الضعف ، ويدرس المتن ، فيبين غامضه ، ويستنبط فقهه ، وإذا كان ناسخاً أو منسوخاً نبه على ذلك .

كما يبين لطلبته الرموز المستعملة في السند أمثال : ثنا : وهو اختصار لحدثنا ، وأنا ، ونا : اختصار لأنبأنا ، أو أخبرنا ، و : ح : تقرأ : حاء ، وهي حاء التحويل ، تفيد عودة السند إلى الراوي كما في المثال التالي : قال الراوي : ثنا محمد ، أنا سعيد ، عن علي ، ح ثنا ادريس ، أن أحمد قال : أنا خالد :

الراوي ← محمد ← سعيد ← علي
الراوي ← ادريس ← أحمد ← خالد

٢ ـ تكوين عقلية ونفسية متفتحة . وقد سبق أن علمنا أن الشيخ في حلقته ، يعمل على تلوين الموضوع بذكر أيام العرب والنوادر ، وغيرها ، لرفع الملل . وهذا يساعد على بلورة حصيلة الطالب وتوسيع أفقه .

وبين وقت وآخر ، نرى الشيخ وهو يوجه أسئلة إلى طلبته ، ويترك لهم المجال لإبداء الرأي ، دون أن يعنتهم أو يقمعهم ، فكانت نفسيتهم . بالتالي متفتحة غير عدوانية ، تقبل الحوار وترحب بمن يصحح معلوماتها ، بل وتطلب العلم ممن هو أعلم منها ، دون أنفة أو كبر . ومن شأن ذلك أن يخلق شخصية لها وزنها العلمي .

ومن حسن الحوار ، ما يضربه لنا الرسول عليه السلام عندما جاءه فتى من قريش ـ كما يروي أبو أمامة ـ وقال له : « يا رسول الله ، ائذن لي في الزنا ، فأقبل القوم عليه وزجروه ، فقالوا : مه ، مه ، فقال : ادن ، فدنا منه قريباً ، فقال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . قال : أتحبه لأختك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال : أتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال : أتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم . قال : فوضع يده عليه ، وقال : اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه . قال : فلم يكن الفتى بعد

ذلك يلتفت إلى شيء»[1] .

وهذا معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ يقول : « بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ ، إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه ، ما شأنكم تنظرون إلي ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتونني ، سكت . فلما صلى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه . فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني . قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن . . . »[2] . فانظر إلى هذه النفسية التي رعاها الله تعالى .

ويخطىء ابن عمر حين يروي عن النبي عليه السلام : «الشهر تسع وعشرون ، فعندما ذكر ذلك لعائشة ، هل انتقصت من قيمته ؟ هل جرحته بكلمة نابية ؟ لا ، لقد قالت : « يرحم الله أبا عبدالرحمن ، إنما قال : الشهر يكون تسعاً وعشرين »[3] .

ويختلف سمره وعمران ، وفي ذلك يروي الحسن عن سمرة قال : «سكتتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ . فأنكر ذلك عمران فقال : حفظناها سكتة . فكتبنا إلى أبي بن كعب بالمدينة ، فكتب أبي أن قد حفظ سمرة»[4] .

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٩ : رواه أحمد والطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) النووي : رياض الصالحين ، ص : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، رواه مسلم .

(٣) مسند أحمد ٦/٥١ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ١/٥٢ ـ ٥٣ .

ويروي أبو هلال قائلاً : «حدثنا حنظلة أمام مسجد قتادة ـ قلت : هو السدوسي ـ قال : اختلفت أنا وقتادة في القنوت في صلاة الصبح ، فقال قتادة : قبل الركوع ، وقلت أنا : بعد الركوع . فأتينا أنس بن مالك ، فذكرنا له ذلك ، فقال : أتيت النبي ﷺ ، في صلاة الفجر ، فكبر وركع ، ورفع رأسه ، ثم سجد ثم قام في الثانية ، فكبر وركع ، ثم رفع رأسه ، فقام ساعة ثم وقع ساجداً»[1] .

ولا عجب من هذا التواضع والأدب السامي ، فهذه هي ثمار المدرسة التي أشرف عليها أفضل الخلق ، محمد صلوات الله عليه ، وطلبته يعلمون أنه لا يراد بالعلم التباهي ، ولكن الوصول إلى الصواب .

وقد كانوا يستحسنون تعديد الشيوخ الذين يأخذ عنهم الطالب ، حتى يتبين له صواب هذا ، وخطأ ذاك ، فقد كان أيوب يقول : « إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك ، فجالس غيره»[2] ، وأيضاً حتى يأخذ أدبهم وسلوكهم السامي ، وقد كان ذلك ديدنهم ، فهذا البخاري مثلاً كتب عن أكثر من ألف شيخ[3] ، وذاك أبو داود سمع الكثير من مشايخ البلدان في الشام ومصر والجزيرة والعراق وخراسان وغير ذلك[4] . وكذا شأن عامة المحدثين . وما الرحلة إلا وسيلة من وسائل تعديد الشيوخ ، وضبط المرويات ، وتوسيع الأفق .

---

(١) ابن القيم : نفس المرجع ، ١/٧٣ .

(٢) سنن الدارمي ١/١٥٣

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٥

(٤) ابن كثير : نفس المرجع ، ١١/٥٤ ـ ٥٥ .

٣ ـ يعرف الطالبُ وسط المحدثين عدالة وضبطاً ، فهو يشكّل مع الزملاء الذين يأخذون معه عن الشيخ طبقة ، يعرف منهم الواحد صاحبه ، خصوصاً إذا علمنا أنهم كانوا يجتمعون فيما بينهم للمذاكرة قبل الدرس وبعد انتهائه ، قصد التفقه والحفظ ، واختبار بعضهم البعض ، لمعرفة مقدار حفظ هذا أو ذاك ، ثم إن المعاشرة كفيلة بأن تبين لهم إذا كان شخص ما عدلا أو غير عدل .

وتأثير هذا ، يظهر في الأخذ بحديث الراوي ، والعمل به ، أو تركه ، الأمر الذي يعتبر مثال التحري عند المحدثين ، لأنهم يذودون عن الدين الحنيف من البدع والزيغ والأهواء ، فلزمهم أن لا يقبلوا قولاً إلا ممن عرفت عدالته وعلم ضبطه .

المبحث السادس
نتائج عدم الأخذ عن الشيوخ

سنحاول هنا ، ذكر بعض النتائج ، التي تسنى لنا الوصول إليها ، حول نتائج عدم الأخذ عن الشيوخ ، وهي كالتالي :

١ ـ افتقاد عنصر الاقتداء ، الذي أكد عليه كل من السلف والخلف ، وبالتالي سنفتقد في الشخص الذي لم يأخذ عن أي عالم ، أخلاق العلماء . ومن هذا المنطلق ، انتقد ابن حزم ، وقيل : إن ذلك هو سبب سلاطة لسانه ، حتى قيل : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج

شقيقين »[1] . وغالى البعض حتى قال : إنه عار من الشيوخ[2] ، ومنهم من ركز على عدم ملازمته للعلماء ، كقول أبي اسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) :

أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم ، لأخذه عنهم ، وملازمته لهم ، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك . . . وحسبك من صحة هذه القاعدة ، أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه ، إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك . وقلما وجدت فرقة زائغة ، ولا أحد مخالف للسنة ، إلا وهو مفارق لهذا الوصف . وبهذا الوجه ، وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري ، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ ، ولا تأدب بآدابهم . . . »[3] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/٣٢٨ .

(٢) انظر في رسائل ابن حزم : رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال التعنيف ٣/٨١ .

(٣) الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ١/٩٣ ـ ٩٥ . وبقصد الشاطبي أنه كان شديد اللهجة مع العلماء . فعلاً ، لقد وقع في حق حملة من الفقهاء المقلدين ـ والتقليد عنده غير مقبول ـ . وإن كان انتقاده مراً ، فذلك راجع إلى الظروف القاسية التي مر بها ، وإلى إصابته بربو شديد في الطحال حسب تفسيره في الأخلاق والسير ، ص : ٢١٠ .

ثم أن تقلبه المبكر في المذاهب ـ من المذهب المالكي ، إلى الشافعي ، إلى الظاهري ـ لا يساعده البتة على أن يلازم فقيهاً معيناً ، لأن ملازمته تعني اعتقاد مذهبه ، أما عند إحساسه بأن فقيهاً لم يعد يقنعه فإنه يبحث عن آخر ، وكذا إذا لم يعد مذهب ما يرضيه ، وهذا أمر طبيعي . ومع ذلك ، فقد وجدنا له جملة لا بأس بها من الشيوخ ، منهم من أخذ عنهم الأدب ، ومنهم من أخذ عنهم الحديث أو الفقه أو المنطق . . . انظر رسالتنا : ابن حزم الأندلسي وأثره في الدراسات الحديثية ١/٦٩ ـ ٨٢ .

على أننا نعتقد أن السبب المباشر في نقده اللاذع للفقهاء يرجع إلى تهجمهم عليه وكيدهم له .

٢ ـ ضيق الأفق ، ذلك لأنه سوف يبقى في إطار ما درسه في الصحف ، غافلاً عما يمكن أن يرفع من مستواه العلمي ، سواء تعلق الأمر بالفن الذي يدرسه ذاته ، أو بأمور أخرى ، تكون الثقافة العامة للطالب .

٣ ـ التصحيف نتيجة الأخذ من الصحف ، وهو إما تصحيف في الإسناد ، أو في المتن . فمن التصحيف الذي وقع في الإسناد ، ما ذكره الحاكم قال : «أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه ، قال : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا ، محمد بن جعفر ، قال : حدثنا ، شعبة ، عن مالك بن عرفطة ، عن عبدخير ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ ، نهى عن الدباء والمزفت .

«قال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ صحف شعبة فيه ، «إنما هو خالد بن علقمة» . «قال أبو عبدالله : والدليل على صحة قول أحمد ـ رحمه الله ـ أن زائدة بن قدامة وأبا عوانه وشريك بن عبدالله ، رووا عن خالد بن علقمة ، عن عبد خير بنحوه»[١] .

ومن التصحيف الذي وقع في المتن ، ما ذكره الحاكم ، قال : «حدثنا أبو بكر بن اسحاق الإمام قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن الوليد ، قال : حدثنا صفوان بن صالح ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعًا وتسعين اسماً ـ

---

(١) الحاكم النيسابوري : معرفة علوم الحديث ، ص : ١٤٩ ، وانظر مقدمة ابن الصلاح ، ص : ١٤١ .

الحديث ، وذكر فيه الأسامي ، وفيه : (الحفيظ المقيت) .

«قال أبو عبدالله : وهكذا أخرجه أبو بكر بن خزيمة في المأثور : (المقيت) ، فحدثنا أبو زكرياء العنبري ، قال : حدثنا أبو عبدالله البوشيخي قال : حدثنا موسى بن أيوب النصيبي ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، ذكر الحديث بنحوه ، وقال : (الحفيظ المغيث) ، ومن قال : (المقيت) ، فقد صحف»[1] .

وتجدر الإشارة إلى أن التصحيف لا يكون دائماً بسبب الأخذ من الصحف ، إذ قد يكون أيضاً بسبب سوء السماع من الشيخ ، فيكتب الطالب كلمة ، يعتقد أن الشيخ نطق بها ، بينما الواقع خلاف ذلك .

وقد اهتم المحدثون بالإشارة إلى تصحيف المصحفين ، وتصحيح الأخطاء التي وقعوا فيها ، ولا يعتبرون ذلك من الغيبة . فعن أبي زرعة قال : سمعت أبا مسهر يسأل عن الرجل ، يغلط وَيَهم ويُصَحِّف ، فقال : بَيِّن أمره . قلت لأبي مسهر : أترى ذلك من الغيبة ؟ قال : لا »[2] .

وذكر عبدالله بن سعيد العسكري ، قال : «وأخبرنا ابن عمار قال : انصرفت من مجلس عبدالله بن عمر بن أبان القرشي المحدث المعروف بمشكدانه ، في سنه ست وثلاثين ومائتين ، فمررت بمحمد بن عباد بن موسى ، فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من عند أبي عبدالرحمن مشكدانه ، فقال : ذاك الذي يصحف على جبريل -يريد قراءته

---

(١) الحكام النيسابوري : نفس المصدر ، ص : ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) ابن حيان : كتاب المجروحين ١/٢٠ .

(ولا يعوق وبشراً)[1] ـ وكانت قد حكيت عنه »[2] .

إذا تبين هذا ، فما هو الموقف المتخذ من طرف المحدثين تجاه من لا يأخذ علمه من الشيوخ ، وإنما يأخذه من الصحف .

في هذا الصدد ، نجد شعبة بن الحجاج يقول : «قال لي أيوب : لا تروي عن خلاس ، فإنه صحفي»[3] .

وقال أبو زرعة : «لا يفتي الناس صحفي ، ولا يقرئهم مصحفي»[4] .

وكان ثور بن يزيد يقول : «لا يفتي الناس الصحفيون»[5] .

وقد نتساءل عن هذا التشدد ، لكننا إذا علمنا أن القوم ، كانوا يعولون بالأساس على الرحلة ، ومعرفة الشيوخ ، ومعاشرتهم لمعرفة دقائق رواياتهم ، وإذا علمنا أن الكتب لم يكن لها هذا الشيوع الذي وقع فيما بعد ، فهمنا موقفهم هذا ، بل وسلمنالهم بذلك . أما عندما شاعت الكتب في الأمصار ، فإن الأمر تغير ، وهذا ما يوضحه الحديثان التاليان :

عن يحيى قال : «كانوا يضعفون ما يوجد في الصحف»[6] .

وعن سليمان بن موسى قال : «كان يقال : لا تأخذوا القرآن عن مصحفي ، ولا العلم عن صحفي»[7] .

---

(١) يقصد آية : «ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسراً» سورة نوح ، آية : ٢٣ .

(٢) العسكري : شر ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١/١١ .

(٣) ابن أبي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ٣/٤٠٢ .

(٤) الخطيب . الفقيه والمتفقه ٢/٩٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢/٩٧ .

(٦) الرامهرمزي . المحدث الفاصل ، ص : ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٧) العسكري : شرح ما يقع فيه التصحيف ١/٩ ـ ١٠

فتصريحمها بـ «كانوا . . » ، و «كان يقال» ، يدل على أنه في عصرهما تغيرت الحال ، وأنه لم يعد يضعف من يأخذ من الصحف ما يجد فيها .

وهذا ، فيما إذا تيقن الذي وجد الكتاب أو الصحيفة أنها بخط صاحبها ، واليوم كثير من المخطوطات التي تحقق ، إنما هي عن طريق الوجادة[1] . ولو لم نعمل بها لضاعت ، كنوز ومؤلفات ، وفي ذلك ، يقول ابن الصلاح : «قطع بعض المحققين من أصحابه في أصول الفقه - (أي أصحاب الشافعي) - بوجوب العمل به ، عند حصول الثقة به ، وقال : لو عرض ما ذكرناه على جمله المحدثين لأبوه . وما قطع به هو الذي لا يتجه غيره في الأعصار المتأخرة ، فإنه لو توقف العمل فيها على الرواية ، لانسد باب العمل بالمنقول لتعذر شروط الرواية فيها»[2] .

وعبد الله بن أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ) ، يعتبر من الذين استفادوا من الوجادة ، حيث إنه نقل ما وجد بخط أبيه من الحديث في المسند ، فيقول : «وجدت أبي» . ومما لا شك فيه أنه يعرف خط أبيه معرفة جيدة ، لذلك فهو متيقن من صحة ما ينسبه لأبيه .

وبعد هذا وذاك ، فإن الأخذ عن الشيوخ يبقى هو الأساس في تلقي العلم . والأخذ من الصحف ، يأتي بعد ذلك ، حتى يكون الطالب قد تمرس بعلم الحديث ليقل تصحيفه ، وتتسع مداركه .

فإذا تبين لنا هذا ، فإنه يجدر بنا دراسة الخصائص التي يتميز بها التعليم عند المحدثين ، تتويجاً لهذا البحث .

---

(١) من : وجد ، يجد - مولد غير مسموع .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ، ص : ٨٧ ، وانظر ما ورد عند الدكتور فاروق حمادة : المنهج

(٣) الإسلامي في الجرح والتعديل ، ص : ٢٤٣ - والمكي اقلاينة : ابن حزم الأندلسي أثره في الدراسات الحديثية ١/١٥٧ - ١٦١ .

الفصـــــل الخامـــس

خصـــائص التعلـيم عنـد المحـدثين

في هذا الفصل ، سنتناول بالدراسة ما يلي :

ـ المبحث الأول : العمومية .

ـ المبحث الثاني : المساواة .

ـ المبحث الثالث : المجانية .

ـ المبحث الرابع : التكوين المستمر .

ـ المبحث الخامس : ارتباط العلم بالعمل .

المبحـــث الأول

العمـــــــومـيـــــة

من الممكن أن نطرح التساؤل التالي : ما مدى عمومية التعليم عند المحدثين ؟

إذا ما عدنا إلى القرآن الكريم ، وجدنا الخطاب موجهاً إلى من لا يعلم ، ليسأل من يعلم : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، (النحل : ١٦) . فعلى كل راغب في العلم ، أن يسأل ، ويبحث عمن يفيده في مسألته .

لكن ، ماذا على العالم ؟

وبالنسبة للعالم ، فإنه يجب عليه ، إن كان له علم بالمسألة ، أن يجيب السائل ، وإلا تعرض لوعيد رسول الله ﷺ ، حيث قال : «إن من كتم علماً مما ينفع الناس ، ألجمه الله يوم القيامة ، بلجام من نار»[1] .

أما إذا لم يكن له علم بها ، فإنه يقول : «لا أدري» ، بدون حرج ، حتى إن الشعبي ، قال : «لا أدري : نصف العلم»[2] ، وهو قول غيره من الصحابة والتابعين .

وبناء عليه ، نجد عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول : «يا أيها الناس ، من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْر ، وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ، (ص : ٨٦)[3] .

من أجل هذا كله ، نجد الناس يبحثون عن العلماء ، ويتحلقون حولهم للأخذ عنهم ، ويرحلون إليهم من البلدان البعيدة ، متحملين في ذلك المشاق ، والمصاعب . ومن جانب آخر ، نرى العلماء بدورهم يتوجهون إلى بلدان معينة ، قصد توعية الأهالي ، على شكل بعثات علمية ، يعلمونهم ما يتعلق بالعبادات ، والمعاملات ، وفضائل

---

(١) سنن ابن ماجة ١/١١٥ ، وانظر ما روي عن أنس ، وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما

(٢) سنن الدارمي ١/٦٣

(٣) صحيح البخاري ٨/٥٤٧ ، و ٨/١١٥ ، وصحيح مسلم ١٧/١٤١ ـ ١٤٢ .

الأعمال ، يلقون دروسهم في الطرقات ، والمساجد ، حتى يستفيد أكبر قدر ممكن من الناس .

وعلى هذا ، لم يكن المعلم مقتصراً على الطلبة فقط ، بل كان في متناول العامة والخاصة ، وما على الشخص إلا أن يحضر الحلقة للتزود بخير الزاد .

وقد كان من عادة الناس أنهم إذا سمعوا بوصول محدث إلى المدينة ، يضربون له موعداً في المسجد ، أو في مكان عام للجلوس إليه والاستماع منه ، أو لاختباره أحياناً من طرف محدثي البلد ، كما وقع للبخاري ، إذ قلبوا عليه مائة حديث ، إلا أنه فطن إلى ذلك ، ورد كل متن إلى سنده ، فشهدوا له بالعلم والإتقان[1] .

وقد نجد العالم أحياناً يحدث ، ويقرأ ، القرآن حتى على من لا يشتهيه ، ويتحيل لذلك شتى الحيل ، فلعل الله يهدي السامع إلى خير السبيل . وفي ذلك ، يروى عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ «أنه كان في سفر ، فرفع عقيرته بالغناء ، فاجتمع الناس ، فقرأ ، فتفرقوا ، ففعل ذلك ، وفعلوه غير مرة . فقال : يا بني المتكاء ، إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم ؟!»[2] .

وهذه النصوص ، تدل صراحة على الإحساس العميق الذي يستشعره المحدث إزاء سنة رسول الله ﷺ ، من ضرورة تبليغها إلى عامة المسلمين .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٥ .

(٢) ابن قتيبة : غريب الحديث ٢/٣٧٣ ، والزمخشري : الفائق ٢/٧٧٧ ـ المتكاء : قيل هي التي لا تحبس بولها .

إلا أنه قد يقول قائل : إن العمومية غير قائمة ، بدليل أن من المحدثين من كان يرفض تحديث الغريب ، ولم يكونوا يروون كل ما عندهم للعامة .

وهذا القول في الواقع راجع إلى سوء فهم ، وعدم الوعي بمجموعة من المسائل من طرف المدعي . ففيما يتعلق بالتحرج من تحديث الغرباء ، لم يكن في عهد الصحابة ، ولا في عهد التابعين ، ولكن في عهد أتباع التابعين ، ومن بعدهم ، حيث انتشرت البدع والأهواء ، وخاف بعض المحدثين أن يتصدر أحد المبتدعة الإفتاء ، فيحرفون الحديث مسايرة لأهوائهم ، فامتنعوا من تحديث الغريب حتى تثبت لهم عدالته . وفي ذلك قال معاوية بن عمرو بن المهلب الأزدي : «كان زائدة لا يحدث أحداً حتى يمتحنه ، فإن كان غريباً قال له : من أين أنت ؟ فإن كان من أهل البلد ، قال : أين مصلاك ؟ ويسأل كما يسأل القاضي عن البينة ، فإذا قال له ، سأل عنه ، فإن كان صاحب بدعة قال : لا تعودن إلى هذا المجلس ، فإن بلغه عنه خيراً ، أدناه وحدثه ، فقيل له يا أبا الصلت ، لِمَ تفعل هذا ؟ قال : أكره أن يكون العلم عندهم ، فيصيروا أئمة يحتاج إليهم ، فيبدلوا كيف شاؤوا»[1] .

وهذا النص يوضح لنا أن الأمر لا يتعلق بالغرباء فقط ، بل حتى بأهالي البلد ، وذلك راجع إلى انتشار البدع ، فكان من المحدثين ـ ورعا ـ لا يحدثون إلا من ثبتت لهم عدالته ، وفي ذلك صيانة للسنة .

أما فيما يتعلق بعدم رواية المحدث كل ما يعلمه للعامة ، فذلك راجع

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٥٧٤ ـ ٥٧٥ .

إلى كونه يريد مخاطبتهم حسب عقولهم ، حتى لا يكذب الله ورسوله ، فليس كل حديث يستطيع أن يفهمه العامة . أما عندما يكون في خلوة مع طلبة الحديث الشريف ، فله أن يتبسط معهم ، دون حرج ، مع بيان الصحيح من السقيم ، والموضوع - أي المكذوب - ليردوه على أهله ، بينما لا يحل له ذلك مع غيرهم ، لئلا يختلط الأمر عليهم ، خصوصاً وأنهم لم ينصرفوا كلية للعلم ليفقهوا دقائقه .

وقد نجد طالبا يروي للعامة حديثاً سمعه من شيخه ، كان الأولى أن لا يرويه لهم ، فيوبخه شيخه على ما فعل . فهذا مجاهد يقول : «حدثنا الشعبي بحديث الحمار الذي عاش بعدما مات ، فرويته عنه ، فأتاه قوم فسألوه عنه ، فقال : ما حدثت بهذا الحديث قط ، فأتوني ، فأتيته ، فقلت : أو ما حدثتني ؟! فقال : أحدثك بحديث الحكماء ، وتحدث به السفهاء ؟ !»[1] .

وهو بذلك يسير على الهدي النبوي ، والخطة التي رسمها النبي عليه السلام في أن من يضع العلم عند غير أهله ، لا يجد قلباً واعياً ، فكأنه يقلد الخنازير اللؤلؤ ، في حين أنها لا تستفيد منه . قال ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب»[2] .

وعن أبي جعفر قال : «يا جابر ، لا تنشر الدر بين أرجل الخنازير ، فإنهم لا يصنعون به شيئاً» . وعلق الرامهرمزي عليه بقوله : « وذلك نشر العلم عند من ليس له بأهل»[3] ,

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٥٧٢ .
(٢) سنن ابن ماجه ١/٩٨ - ٩٩ .
(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٥٧٣ .

ولعل كلام كثير بن مرة يفسر ذلك ، إذ قال : «لا تحدث الباطل للحكماء فيمقتوك ، ولا تحدث الحكمة للسفهاء ، فيكذبوك ، ولا تمنع العلم أهله ، فتأثم ، ولا تضعه في غير أهله ، فتجهل . إن عليك في علمك حقاً ، كما أن عليك في مالك حقاً»[1] .

وبهذا ، يظهر أن العمومية قائمة في التعليم عند المحدثين ، أما عندما يصبح الأمر متعلقاً بمن يُكِنُّ للإسلام العداء ، فإننا لا نجد من يحل تزويده بالسلاح لتقويته . وأما عندما يتعلق الأمر بالعوام ، فيجب أن نعلم أن المحدثين لم يكتموهم شيئاً مما يعلم من الدين بالضرورة ، وما يحتاجون إليه في عباداتهم ومعاملاتهم . أما الدخول معهم في دقائق العلم ، فإنه لا يمكن لهم استيعابه إلا تدريجياً ، وهذا لا يتأتى إلا للطلبة المتفرغين للعلم .

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس : «كونوا ربانيين حكماء فقهاء» ، قال البخاري : «ويقال : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[2] ، ووضح الحافظ ابن حجر العسقلاني ذلك بقوله : « والمراد بصغار العلم : ما وضح من مسائله ، وبكباره : ما دق منها . وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده»[3] وهذا يدل على أن العلم لا يؤخذ دفعة واحدة ، ولكن عن طريق التدريج ، انطلاقاً من المبسط إلى المعقد .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ١/١٦٠

(٣) ابن حجر، فتح الباري ١/١٦٢ .

المبحـــث الثـــاني
المســــــــــــاواة

هل كانت المساواة متحققة في التعليم عند المحدثين ؟ أم أنهم كانوا يميزون بين ذوي الجاه والمعدمين ؟ وبين الرجل ، والمرأة ، والصبي ؟

لنتأمل النصوص والوقائع لنخرج بنتيجة حول الموضوع .

هذا ابن شهاب الزهري ، لم يكن يرى إملاء الأحاديث على الطلبة ، بل يكتفي بالتحديث ، وبعدما أملى على أبناء الأمير لإلحاحه عليه ، رأى من وجه الإنصاف الإملاء على الناس كافة ، كما أملى على هؤلاء الأبناء . وفي ذلك تسوية بين الطرفين . فخرج إليهم وقال : «كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين»[1] .

وهذا أحد السلاطين يرسل إلى البخاري طالباً منه أن يأتيه ، حتى يسمع أولاده منه ، فيجيبه قائلاً : «في بيته العلم ، والعلم يؤتى» ، يعني : إن كنتم تريدون ذلك ، فهلموا إلي ـ وأبى أن يذهب إليهم[2] .

وهذا الأمير الموفق يأتي أبا داود ، فيسأله عن سر مجيئه فيجيبه قائلاً : «خلال ثلاث» ، فيسأله عنها ، فيجيبه بقوله : « تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا ، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتعمر بك ، فإنها قد خربت وانقطع عنها الناس ، لما جرى عليها من محنة الزنج» ،

---

(١) عبدالرزاق المصنف ١١/٢٥٨ ، حديث : ٢٠٤٨٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢٧ .

فيقول له : «هذه واحدة ، هات الثانية» ، فيقول : «وتروي لأولادي كتاب السنن» ، فيقول : نعم ، «هات الثالثة» ، فيقول الموفق : « وتفرد لهم مجلساً للرواية ، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة» ، فيرد عليه أبو داود : «أما هذه ، فلا سبيل إليها ، لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء » . قال أبو بكر بن جابر ـ راوي الواقعة : «فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون ، ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة»[1] .

من خلال النصوص السابقة ، يظهر أن من المحدثين من كان يفرد لأبناء الأمراء ، مجلساً للرواية ، وكانوا قلة ، أما جمهور المحدثين ، فلم يكونوا راضين بذلك ، فمن أراد السماع ، فليحضر مع الناس . والسبب في ذلك ، هو أنهم يخشون على المحدث أن يتزلف للسلطان ، فيساير هواه ، ولا ينهاه عن البدع ، لما سيسبغ عليه من العطايا . لكننا إذا رجعنا إلى أمثال ابن شهاب الزهري ، فإننا سنجده مثال الصلابة في الحق ، لا يخشى في الله لومة لائم ، فنراه يواجه الأمير عندما يحيد عن الصواب والجادة ، ثم إنه لم يكن يؤثر أبناء الأمير بالحديث ، دون بقية الناس ، بل نراه ينشره في جميع الأوساط .

وهكذا ، نخرج بالنتيجة التالية ، ألا وهي المساواة بين الحاكم والمحكوم في العلم . فكيف هو الحال بالنسبة للصبيان ؟

إذا ما عدنا إلى النصوص ، وجدنا المحدثين يحثون على تعليم الصبيان إن كرهاً ، وإن ترغيباً في النقود أو الحلوى . فعبدالله بن عمر

---

(١) الخطابي : معالم السنن ١/٧ ـ ٨ .

كان يكبل رجلي مولاه عكرمة ويعلمه القرآن والسنة[1] وعبدالله بن داود يقول : «ينبغي للرجل أن يكره ولده على سماع الحديث»[2] وهذا فيما إذا كان يتشاغل عنه . ومن جانب آخر ، نجد إبراهيم بن أدهم يقول : «قال لي أبي : يا بني ، اطلب الحديث ، فكلما سمعت حديثاً وحفظته فلك درهم . فطلبت الحديث على هذا»[3] .

كما يكون تشجيع الصبيان على التعلم بالاهتمام بهندامهم ، كما كانت تفعل والدة الإمام مالك ، واختيار أفضل الشيوخ ، فعن مطرف قال : «سمعت مالكاً بن أنس يقول : قلت لأمي : أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت لي أمي : تعال ، فالبس ثياب العلماء ، ثم اذهب فاكتب . قال : فأخذتني فألبستني ثياباً مشمرة ، وضعت الطويلة على رأسي ، وعممتني فوقها ، ثم قالت : اذهب الآن فاكتب »[4] .

إلى جانب هذا التشجيع ، نجد المساواة والعدالة حتى بين الصبيان في المكتب ، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : «قال رسول الله ﷺ : أيما مؤدب وَلي ثَلاثة صبية من هذه الأمة ، فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم وغنيهم ، مع فقيرهم ، حشر يوم القيامَة مع الخائنين»[5] والمسلمون يأتمرون بما يأمرهم به عليه السلام . . .

---

(١) سنن الدارمي ١/١٣٨ .

(٢) أبو بكر الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص : ٦٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٧ .

(٤) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ٢٠١ ، وفي الديباج لابن فرحون ، ص : ٢٠ « وكانت تقوّل : اذهب إلىٰ ربيعة ، فتعلم من أدبه قبل علمه » ، وهذا يدل على أن النسوة كان لهن علم بأصحاب العلم والفضل .

(٥) ابن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص ٧٤ .

وقد أعطت التربية المحمدية أكلها ، فنرى عمر بن الخطاب ، وهو يصحب معه ابن عباس إلى دار الندوة ليحضر اجتماعات الصحابة ، في حين أنه ما يزال في سن الصبا[1] .

ونرى عمرو بن العاص ، يقف على حلقة من قريش ويقول : «ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة ؟ لا تفعلوا ، وأوسعوا لهم في المجلس ، وأسمعوهم الحديث ، وأفهموهم اياه ، فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم ، فأنتم اليوم كبار قوم»[2] .

ونفس النداء نجده عند الحسن البصري يوجهه لأصحابه : «قدموا إلينا أحداثكم فإنهم أفرغ قلوباً ، وأحفظ لما سمعوا ، فمن أراد الله عز وجل أن يتم ذلك له ، أتمه»[3] .

هكذا ، يظهر اهتمام المحدثين بالصبيان . وقد يستغرب البعض ، إذا ما قلنا : إن لهم شأناً كبيراً في الإسلام ، ظهر أثره في العهود الأولى ، حتى أنهم كانوا يستشارون . فابن يوسف بن الماجشون يروي عن ابن شهاب الزهري حَدّثه هو وابن عم له ، وشخص آخر ، كان معهم : « لا تستحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث ، فاستشارهم لحدة عقولهم »[4] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٣٦٥ .

(٢) أبو بكر الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص . ٦٥

(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص ١٩٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٣

وعن ابن عيينه قال : «كنت آختلف إلى الزهري ، وأنا حديث السن ، ولي ذؤابتان . فأملى بعضهم : عن أبي سلمة ، وقال بعضهم : عن سعيد ؛ وابن شهاب يسمع . فقال : ما تقول أنت يا صبي ؟ فقلت : عن كلاهما . فضممت الكاف . فجعل يعجب من ضبطي ويضحك من لحني»[1] .

فانتظر كيف أن الطفل تحترم شخصيته ، ويطلب منه رأيه . وأي شعب يطبق فيه هذا النوع من التكوين ، لا يصل إلى قمة الازدهار ؟!

إذا كانت شخصية الطفل تحظى بكل هذه العناية ، فكيف كانت وضعية المرأة ؟ هل كان يعتنى بها في الجانب التعليمي ؟ أم أنها كانت تترك لأشغال المنزل فقط ؟

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ : فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه ، تعلمنا مما علمك الله ، قال : اجتمعن يوم كذا وكذا ، فاجتمعن فأتاهن النبي ﷺ ، فعلمهن مما علمه الله ، ثم قال : ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد ، إلا كانوا لها حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال رسول الله ﷺ : واثنين[2] .

ويوجد كثير من النصوص تبين لنا أن الصحابيات ، وهن يسألنه ويتعلمن منه ، وكنّ خير مبلغ ، ومنهن من كن يفتين بعده ، فعن محمود بن لبيد قال : « كان أزواج النبي ﷺ ، يحفظن من حديث

---

(١) الرامهرمزي : المحدث الفاصل ، ص : ١٩٦ .

(٢) صحيح البخاري ١/١٩٥ ـ ١٩٦ ، حديث ١٠١ .

النبي ﷺ ، كثيراً ، ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة . وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت يرحمها الله . وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ، عمر وعثمان بعده ، يرسلان إليها فيسألانها عن السنن»[1] .

وهذه نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ، راوية محدثة ، من خيرة المحدثات في عصرها ، وكان يجلس في حلقتها مشاهير العلماء والمجتهدين ، ولما دخل الإمام الشافعي مصر ، حضر إليها ، وسمع منها الحديث .

وكذا عتيدة ، جدة أبي الخير التيناني الأقطع ، كانت تدرس وأمامها خمسمائة تلميذ من الرجال والنساء[2] .

وكان الإمام مالك يقرأ عليه الموطأ ، فإن لحن القارىء في حرف ، أو زاد ، أو نقص ، تدق ابنته الباب ، فيقول أبوها للقارىء : ارجع ، فالغلط معك . فيرجع القارىء ، فيجد الغلط .

ويدخل أحد طلبة سعيد بن المسيب بابنته ، فلما يصبح ، يأخذ رداء يريد الخروج ، فتسأله زوجته عن مقصده ، فيخبرها أنه يريد مجلس سعيد لأخذ العلم ، تقول له : اجلس أعلمك علم سعيد .

وكان أشهب بالمدينة ، فاشترى خضرة من جارية ـ وكانوا لا يبيعون الخضرة إلا بالخبز ـ فقال لها : إذا كان عشية ، حين يأتينا الخبز ، فأتينا نعطك الثمن . فقالت : ذلك لا يجوز . فقال لها : ولم ؟ فقالت : لأنه

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٣٧٥ .

(٢) شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ، ص : ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

بيع طعام بطعام ، غير يد بيد . فسأل عن الجارية ، فقيل له : أنها جارية مالك بن أنس ، رحمه الله[1] .

من خلال هذه النصوص ، يظهر لنا أن المرأة لم تكن مقصورة على الأعمال المنزلية ، بل كانت تتعاطى العلم والتعليم منذ العهود الأولى ، وتصدرت مجالس التحديث والإملاء .

نختم هذا العنصر بتقريرنا أن المساواة كانت متحققة عند المحدثين في التعليم في جميع المستويات ، وذلك تطبيقاً لما وصى الله تعالى ورسوله به .

المبحث الثالث
المجانية

ماذا عن موضوع مجانية التعليم عند المحدثين ؟

في عهد الصحابة ، لا نعلم أحداً طلب أجراً مقابل تحديثه . وما تطالعنا به النصوص ، صورة للصحابة وهم يتذاكرون فيما بينهم ، أو يسألهم شخص فيجيبونه عن مسألته إن كان لهم علم بها ، أو يجلس إليهم الناس ليأخذوا عنهم العلم ، أو يحدثون الناس في الجمعة قبل صعود الخطيب المنبر ، كما كان يفعل أبو هريرة . فعن عاصم بن محمد عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال : «رأيت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يخرج يوم الجمعة ، فيقبض على رمانتي المنبر قائماً ، ويقول : حدثنا

(١) ابن الحاج الفاسي . المدخل ١/٢١٥

أبو القاسم رسول الله المصدوق ﷺ ، فلا يزال يحدث حتى إذا سمع فتح باب المقصورة لخروج الإمام للصلاة ، جلس»[1] .

وهم في كل هذا ، يرجون جزاء الله وإحسانه إليهم .

ويأتي عهد التابعين ، أمثال علقمة ، وعكرمة ، ومسروق ، وسالم بن عبدالله بن عمرو الزهري ، وغيرهم . وإننا لم نعثر على أحد من التابعين يحدث الناس بالمقابل ، لكننا وجدنا من كان يقبل تعليم أبناء الأمراء ، بمقابل كالزهري ، وهذه مسألة أخرى ، إذ أن ذلك من قبيل المناصب ، ومع ذلك فقد عيب عليه القيام بهذا العمل .

وعند رجوعنا إلى الأسباب التي دفعت إلى انتقاده ، وجدناها راجعة بالأساس إلى كونه لم يبتعد عن السلطان وبابه ، في حين أن المحدثين يقولون : إن باب السلطان فتنة ، فعلى المحدث أن لايلحه لئلا يقع في المحذور ، فيسايره في هواه . فهذا حذيفة الصحابي الجليل ، يقول : «إياكم ومواقف الفتن ، قيل : وما مواقف الفتن يا أبا عبدالله ؟

قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه »[2] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «إن على أبواب السلاطين فتنا كمبارك الإبل . والذي نفسي بيده ، لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله ، أو قال[3] مثليه»[4] .

---

(١) الحاكم : المستدرك ، ٣/٥١٢

(٢) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/١٧٦ .

(٣) في الأصل : «أو قالوا : مثليه» ، ولا يستقيم ذلك ، لأن القائل هو ابن مسعود

(٤) ابن عبدالبر جامع بيان العلم ١/١٧٦ .

وإذا علمنا أن أمثال الزهري لم يكن لتطاوعه نفسه لا تباع أهواء الأمير ، بل نجده يقف موقفاً صلداً عند الحق ، علمنا أن هذا التخوف لا أثر له عليه ، فهو بعيد عن الشبهات .

أضف إلى ذلك أنه لم يكن يمنع الناس من علمه ، ولا يطلب منهم المال مقابل تحديثهم .

أما عندما ننتقل إلى الأجيال التالية ، فإننا سنجد من المحدثين من لا ينشط للحديث حتى يجمع الناس لهم بعض المال . وهؤلاء علمهم اكتسابي .

وسبب طلب هؤلاء المال هو الفاقة والعوز ، أما الذين لهم ما يعيشون به ، فلم يؤثر عنهم ذلك ، ومنهم من كان يصبر على آلام الجوع ، ولا يمد يده حتى يفرج الله عليه ، وعلم أمثال هؤلاء هو ما نطلق عليه العلم الاحتسابي ، أي يحتسب المحدث أجره لله . منهم الإمام أحمد بن حنبل ، الذي لم يكن يقبل عطايا التجار والأمراء . فهذا تاجر يعرض عليه عشرة آلاف درهم ، ربحها من بضاعة جعلها باسمه ، فيأبى أن يقبلها . وها هو ذا يأبى الصلاة خلف عمه اسحاق بن حنبل وبنيه ، ولا يكلمهم لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ويمكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله ، حتى يبعث إلى بعض أصحابه مستقرضاً منه دقيقاً ، فيعرف أهله حاجته إلى الطعام ، فيعجلون ويعجنون ويخبزون إليه سريعاً ، فيقول : ما هذه العجلة ؟! كيف خبزتم ؟! فيقولون : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه ، فيقول : ارفعوا . ولم يأكل ، وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقي : لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل

على الله[1] .

ويبعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث ، فما بقي أحد منهم إلا أخذ ، إلا أحمد بن حنبل ، فإنه أبى[2] . وذلك راجع إلى موقفه من عطايا السلطان ومصدرها . وهذا ورع منه .

وتنفد نفقته يوماً وهو في اليمن ، فيعرض عليه شيخه عبدالرزاق ملء كفه دنانير ، فيقول : نحن في كفاية . ولم يقبلها[3] .

عن أمثال أحمد ، نقلت إلينا السنة ، وأتتنا بضة نقية ، لأنهم أرادوا بذلك وجه الله ، فتفانوا في خدمتها وتمحيصها .

إلى جانب تعفف الأئمة ، نجد كرم الميسورين منهم ، الذين كانوا يتكفلون بطلبتهم ، ما لم يتقلدون منصباً ، ويحثون المحسنين على مساعدتهم . فابن المبارك ، مثلاً كان يتخذ طعاماً ويدعو أصحاب الحديث إليه . وهذا أبو أسامة يشكو إليه ديناً عليه ، ويسأله أن يكلم له بعض إخوانه ، فيعمد إلى خمسمائة درهم من ماله ، فيوجهها إليه ليلاً مع رسوله ، ويطلب منه أن لا يعلمه من وجهه إليه[4] . وتارة أخرى نراه يعرض على أبي نعيم الخروج إلى صنعاء لطلب الحديث على نفقته[5] .

وهذا ، ما هو إلا مثال من بين أمثلة عديدة ، حدثت بين الشيوخ وطلبتهم ، لحثهم على الاستزادة في طلب الحديث والتفرغ له .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٣٢٨ .

(٢) نفس المصدر ، ١٠/٣٢٨ .

(٣) نفس المصدر ١٠/٣٢٩ .

(٤) ابن أبي حاتم : كتاب الجرح والتعديل ٢/٢٧٧ .

(٥) ابن أبي حاتم : نفس المرجع ١/٢٧٨ .

فهل بعد هذا ، يوجد مجال للقول بعدم مجانية التعليم عند المحدثين ؟! وقد قال ابن عمر : «لا يكون الرجل عالماً حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغي بعلمه ثمناً»[1] ، وبعدما رأينا من تحرج الأئمة من أخذ العطايا هل يبقى أدنى شك فيما ذهبنا إليه ؟!

إلا أن الضرورة دفعت بالبعض إلى طلب المال حال التحديث ، لا على أنهم لا يحدثون إلا به ، ولكن ليستعينوا به فقط على أحوال الزمان ، وليبقوا متفرغين للعلم الشريف . فهم على هذا ، لا يبتغون بعلمهم مالاً ، ولا جاهاً ، وإنما يبتغون مرضاة الله تعالى . والأصل عند المحدثين هو نشر الحديث ، دون الالتفات إلى الجانب ، المادي لأنه أمر عارض ، وهدفهم أسمى من ذلك ، ألا وهو الحفاظ على هذه الشريعة الغراء ، بالذب عن السنة وتعليم الناس أمر دينهم .

ونراهم يتواصون بحسن معاملة الطلبة ، فيذكر الربيع بن سليمان أنه كتب إليه أبو يعقوب البويطي «أن أصبر نفسك للغرباء ، وأحسن خلقلك لأهل حلقتك ، فإنني لم أزل أسمع الشافعي يكثر أن يتمثل بهذا البيت :

أهين لهم نفسي لكي يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تهينها[2]

وهذه المعاملة الطيبة تدفع بالمستمعين إلى تقديم بعض الهدايا للمحدثين ، فمنهم من كان يقبلها ، ومنهم من كان يرفضها كالإمام أحمد كما سبق ذكره .

وعند التحقيق ، نجد أن الهدية مقبولة ، ما لم تكن مطية إلى محرم ، وقد قبلها الرسول الكريم .

---

(١) سنن الدارمي ١/٨٨

(٢) الساعاتي : بدائع المنن ٢/٥٢٥ - ٥٢٧

وفي هذه المسألة ، نعرض ما ورد في البستان لأبي الليث قال : «التعليم على ثلاثة أوجه : أحدها للحسبة ، ولا يأخذ به عوضاً ، والثاني أن يعلم بالأجرة ، والثالث أن يعلم بغير شرط ، فإن أهدي إليه قبل . فالأول مأجور ، وعليه عمل الأنبياء ، والثاني مختلف فيه ، والأرجح الجواز ، والثالث يجوز اجماعاً لأن النبي ﷺ كان معلماً للخلق وكان يقبل الهدية»[1] .

والأمر السائد بين المحدثين المعتمد عليه ، والذين حفظ الدهر صنيعهم هو الاحتساب . ولهذا ، فلا مجال لأحد أن يزعم أن الناس لم يكونوا يجدون من يحدثهم حتى يدفعوا المقابل . فالمحدثون كثيرون ، والمحتسبون أجرهم متوافرون ، بل إن من قيل : إن علمهم اكتسابي ، لم يكونوا ليمتنعوا عن التحديث في حالة عدم تقديم النقود لهم ، ومن جهة أخرى ، نجد من النقاد من ضعفهم لهذا السبب .

المبحث الرابع
التكوين المستمر

إن الإنسان كلما أطال النظر في علمه ، إلا وظهرت له أشياء كان غافلاً عنها ، وكلما طلب علماً إلا واتسع أفقه . فما هو موقف المحدثين من استمرارية التكوين ؟

سئل عبدالله بن المبارك ذات يوم : «إلى كم تكتب الحديث؟» فأجاب : «لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد»[2] .

---

(١) الأهواني : التربية في الإسلام ، ص ٢١٥

(٢) أبو بكر الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص ٦٨

وسأل الحسن بن منصور الجصاص أحمد بن حنبل : «إلى متى يكتب الرجل الحديث ؟» فقال له : «حتى يموت»[1] ومرة قال : «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»[2] .

ونفس السؤال يوجهه ابن حزم إلى أبي علي الفاسي ، إذ قال له : «متى تنقضي قراءتك على الشيخ ؟ «فأجابه أبو علي : «إذا انقضى أجلي» فاستحسنها منه[3] .

من خلال هذه النصوص إذن ، يظهر لنا بجلاء ، أن المحدثين يركزون على استمرارية التكوين ، لأنهم بذلك يبقون متمكنين من علمهم ، فلا ينسون حديثاً ، والسبب في ذلك راجع إلى المذاكرة ، مذاكرة الشخص لنفسه ، ومذاكرته لغيره .

كما يبقون دائماً على اتصال بما يروى في الساحة ، ويمثل هذا أهم عنصر ، إذ بفضله تمكنوا من معرفة الأحاديث المكذوبة ، والرد عليها ، بما يناسبها ، فحافظوا على السنة من الأهواء والبدع . ولولا يقظتهم ، لتسربت أحاديث مكذوبة إلى السنة دون علمهم ، لكنه لم يقع والحمد لله .

وهناك جانب آخر يدفع بالمحدثين إلى الاستزادة من طلب الحديث ، وهو راجع إلى فضله واعتباره بمثابة صلاة ، حتى قال سفيان : « ما أعلم

---

(١) أبو بكر الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص : ٦٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٦٨ .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص : ١٩٣ ، ترجمة : ٣٧٣ ، وابن بشكوال : الصلة ١/١٤٠ .

على وجه الأرض من الأعمال أفضل من طلب الحديث ، لمن أراد به وجه الله»[1] .

وعن وكيع : « لولا أن الحديث أفضل عندي من التسبيح ، ما حدثت»[2] . وعن محمد بن عمرو بن عطاء قال : «كان موسى بن يسار معنا يحدث ، فقال له ابن عمرو : إذا فرغت من حديثك فسلم ، فإنك في صلاة »[3] .

إذن ، فالوازع الديني له دور كبير في ظهور مبدأ التكوين المستمر عند المحدثين ، وهذه هي عزيمة صامدة أما نوائب الدهر ، فهم لا يهمهم المال لأنه أمر عارض . ولكنهم يحتسبون أجرهم ، فلا نستغرب عندما يطالعنا أشخاص هم أوعية للعلم ، جردوا أنفسهم لجمع الحديث وتمحيصه ، لا يبتغون من وراء ذلك إلا ثواب الآخرة . فالمثابرة على الطلب ، هو ما نلمسه في المدرسة المحمدية . وهذا ما كفل تفتق أذهان المحدثين ، وتكوين شخصيات فذة ، تنافح عن الدين من زيغ أصحاب الأهواء .

المبحث الخامس
ارتباط العلم بالعمل

مما تجب دراسته ، مكانة العمل في التعليم عند المحدثين . فهل هما متلازمان مترابطان ؟ أم أنه لا رابط بينهما عندهم ؟

عندما نعود إلى الذكر الحكيم ، كثيراً ما نجد الإيمان مرتبطاً بالعمل كما في الآيات التالية ، وفي غيرها :

---

(١) أبو بكر الخطيب : شرف أصحاب الحديث ، ص : ٨١ .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص : ٨٣ .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ . . . ﴾
(البقرة : ٢٥) .
﴿ وٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلجَنَّةِ ﴾ ،
(البقرة : ٨٢) .
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ . . ﴾ ،
(البقرة : ٢٧٧) .
﴿ وأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ،
(آل عمران : ٥٧) .

وإذا علمنا أن العلماء أشد الناس خشية لله ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلعُلَمَاءُ ﴾ ، (فاطر : ٢٧) ، فإننا نعلم بأن علمهم كإيمانهم ، مرتبط بالعمل .

والمحدثون ـ علماء هذه الأمة ـ يتتبعون السنن والآثار ، ويسيرون على هديها ، ويتخذون من رسول الله ﷺ ، القدوة والأسوة الحسنة ، وذلك ابتداء من عهده عليه السلام . فعن أبي عبدالرحمن السلمي قال : « حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ ، عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الأخرى ، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل . قالوا : فعلمنا العلم والعمل »[1] .

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ «يا حملة العلم ، اعملوا به ، فإنما العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله . . . »[2] .

وعن معاذ : «اعملوا ما شئتم بعد أن تعلموا ، فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا»[3] .

---

(١) مسند أحمد ٥/٤١٠ ، وأخرجه ابن سعد في الطبقات بنحوه ٦/١٧٢ .
(٢) ابن عبدالبر . جامع بيان العلم ٢/٧ .
(٣) سنن الدارمي ١/٨١ .

وهذا الارتباط الوثيق بين العلم والعمل راجع إلى كون المسلم مأموراً بتطبيق التعاليم الدينية ، سواء ورد الأمر في كتاب الله عز وجل ، أو في حديث رسول الله ﷺ بناء على قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوه ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ، (الحجر : ٧) .

وقد ورد في القرآن الكريم ذم من يعظ الناس ولا يتعظ ، في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُون ﴾ (البقرة : ٤٤) وإن كانت الآية متعلقة ببني إسرائيل ، إلا أنها تنطبق على كل عالم لا يعمل بعلمه ، وعلى كل واعظ لا يتعظ . وفي هذا المعنى ، يقول جندب بن عبدالله البجلي : «إن مثل الذي يعظ الناس وينسى نفسه ، كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره»[1] .

ولهذا ، فإننا نفهم تخوف أبي الدرداء حين يقول : «إنما أخشى من ربي يوم القيامة ، أن يدعوني على رؤوس الأشهاد ، فيقول لي : يا عويمر . فأقول : لبيك رب . فيقول : ما عملت فيما علمت ؟»[2] .

وهذا التخوف منه ، إنما هو في الواقع ورع منه ، وإلا فإنه إمام يقتدى به ، متبع لأوامر الله ورسوله .

كل هذا ، يجعلنا نجزم أن الأئمة ، والعلماء بصفة عامة ، لم يكونوا ليحيدوا عن تطبيق ما بلغهم عن الله ورسوله من أوامر ، خصوصاً وأنهم يعلمون الوعيد الذي ينتظر من علم ولم يعمل . فأَنْعِمْ بهم وأَكْرِمْ مِن أناس حافظوا على الشريعة نقلاً وتطبيقاً ! .

وتلكم إذن ، هي جملة من الخصائص التي يتميز بها التعليم عند المحدثين .

---

(١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ١/١٩٥

(٢) المنذري : الترغيب والترهيب ١/٩٠ ، وابن عبدالبر : جامع بيان العلم ٢/٢ بنحوه .

الخاتمة

بعد هذا البحث المتواضع ، يتبين لنا كيف أن المسلمين اهتموا بطلب ونشر الحديث النبوي ، منذ العهود الأولى ، حيث سهر الرسول الكريم على تكوين أصحابه تكوينًا سليماً ومتينًا ، بوأهم لأن يكونوا حراس العقيدة والشريعة ، وأن يكونوا خير مثال يقتدى به .

وهكذا ، نجد التابعين ، وقد تشربوا من المعين الصافي ، يسيرون على الهدي النبوي ، باثين علمهم في كل الأوساط ، سواء في المساجد ، أو الدور ، أو الطرقات ، تحديثًا وإملاءً .

وعلى هذا ، نرى مجالس العلم منتشرة هنا وهناك ، والطلبة بالآلاف ، يتحلقون حول الشيخ للأخذ عنه ، يدفعهم إلى ذلك : الوازع الديني ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم[1] ، ولأن من كتم علماً مما يحتاج الناس إليه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار[2] .

وقد كان نظام الحلقات نظامًا دقيقًا ، يقوم على انضباط الطلبة ، والتزامهم بالأدب السامي بحضرة شيخهم ، تحت إشراف نقيب ، وعلى كفاءة المحدث العلمية والتعليمية والتربوية ، وأخيراً ، على الوعي التام من طرف المحدث والسامع .

ولكي يضبط الطلبة ما يروى لهم ، كانوا يعمدون إلى الكتابة ، ومقابلة المكتوب بالكتاب الأصل ، أو عرضه على الشيخ ؛ والطريقة الثانية هي المذاكرة . فتفتقت أذهانهم ، وحفظت صدورهم ، وعرفوا الحافظ منهم والضابط .

---

(١) سنن ابن ماجة ٩٨/١ ـ ٩٩ .

(٢) نفس المرجع ١١٥/١ ، وانظر ما روي عن أنس وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهما .

وقد اتسع نطاق المذاكرة اتساعاً كبيراً ، خصوصاً في الجيل الثالث وما بعده . وبهذا ، كانت نظاماً هاماً من النظم التعليمية .

ولم يكتف المحدثون ، منذ العهد الأول ، بالعلم الموجود في بلادهم ، فنراهم يرحلون إلى الأصقاع البعيدة لضبط حديث ، أو تلقي العلم بصفة عامة ، أو نشره . وبهذا ، حافظوا على الحديث محافظة جلى .

وقد اشترطوا في المرتحل من أجل التعلم مجموعة من الشروط ، منها : إخلاص النية ، وحفظ القرآن أولاً ، واستيفاء العلم الموجود بالبلاد .

ومن جانب آخر ، نجدهم يؤكدون على ضرورة الأخذ عن الشيوخ الثقات ، للانتفاع من علومهم وتجاربهم ، والاقتداء بهم . أما الاعتماد على الصحف فقط ، فإنه يفوت على الشخص هذه الفوائد ، خصوصاً وأنه لا يطلب منه مال مقابل التعلم بصفة عامة ، ومن أراد أن يحضر مجالس العلم ، فإنه لا يمنع . ولم يكن هناك تمييز بين الغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والصبي والرجل والمرأة ، فكل هؤلاء سواسية في العلم .

ومن مميزات التعليم عند المحدثين : ارتباط العلم بالعمل ، وهذا يساعد على ترسيخ الحديث في الذاكرة . كما يتميز أيضاً بكون الطلبة يتحرون الأخذ عن العدول الضابطين ، أما أصحاب الأهواء والبدع ، فإنه سرعان ما يخبو أثرهم ، لأن المسلمين حريصون كل الحرص على الذب عن السنة والشريعة . ومن مهمتهم التنبيه على هؤلاء ، حتى لا يأخذ عنهم أحد . وقد نرى أحد الثقات وهو يحفظ صحيفة اكتتبها من صاحب هوى ، وذلك إنما ليكون عالماً بمروياته ، فإذا ما جاء شخص يروي تلك الأحاديث ، عرف درجتها من الصحة ، فلا يعمل بها ، ويبين المسألة للناقل حتى ينتفع هو أيضاً .

هكذا ، يظهر لنا أن النظم التعليمية عند المحدثين نظم دقيقة ، تهدف إلى تكوين شخصيات فذة ، لها مواقف إيجابية ، لا تقف عند حدود الاجترار ، بل تسمو إلى ما يمكن تسميته بالنقد المنهجي ، ذلك المنهج الذي

ظهر عند المحدثين . وتأثرت به باقي الميادين كالأدب والتاريخ ، فحق لهم أن يفخروا بذلك أيما فخر ، ولم لا ؟! وقد حافظوا على السنة الشريفة من الزيف والزيادة والنقصان ، وأعطوا الضوء الأخضر لعلماء اللغة والتاريخ ليسيروا على هديهم في تمحيص الأخبار والتدقيق في المرويات .

لقد أعطونا المثل الأعلى في ما يسمى بالأمانة العلمية ، فهل نحن مقتدون ؟ لا نريد أن نقول : «كان أجدادنا» بل علينا أن نقول : «كان أجدادنا ، وها نحن على آثارهم سائرون قدمًا إلى الأمام» ، فإذا كان الذين سبقونا خدموا السنة تحديثًا وإملاءً ، وتأليفًا ، وتوضيحًا للصحيح من السقيم ، فهلاّ نهضت الهمم اليوم للمزيد من هذه الخدمة ؟!

أن التقنيات الحديثة ، يمكن استغلالها في تبسيط المؤلفات التي تعسر على المتخصصين وغير المتخصصين بطريقة أولى . فها هو الحاسوب بين أيدينا فهلا اختصرنا الجهود ؟! .

هذه دعوة نوجهاا إلى كل من يريد خدمة الحديث الشريف ، وهي مهمة جليلة ، لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد ، بل مجموعة من المتخصصين يهتمون بشؤون المسلمين ، ومن لا يهتم بشؤون المسلمين فليس منهم .

لقد حاولنا في هذا البحث المتواضع ، أن نلم بشتات الموضوع ، فإن لم نحط بجميع دقائقه ، فإنه يشفع لنا أننا حاولنا جهدنا تسليط الأضواء على هذا الجانب من الدراسة ، لاكتشاف بعض مقومات الحضارة الإسلامية ، وكيفية وصول الحديث إلينا على وجه الخصوص . وقد ظهر لنا أنه نقل إلينا نقلاً أميناً ، فالصحابة يسمعون من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينقلون إلى التابعين ، وهؤلاء إلى غيرهم ، وكان يجلس للسماع عدد هائل من الطلبة ، يصل إلى المائة ألف أو يزيد أحيانًا . وهناك جانب آخر توخيناه من هذا البحث ، ألا وهو اكتشاف أشياء قد تفيدنا اليوم في حياتنا التعليمية .

هذا ، ونسأل الله التوفيق ، أنه على ما يشاء قدير .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

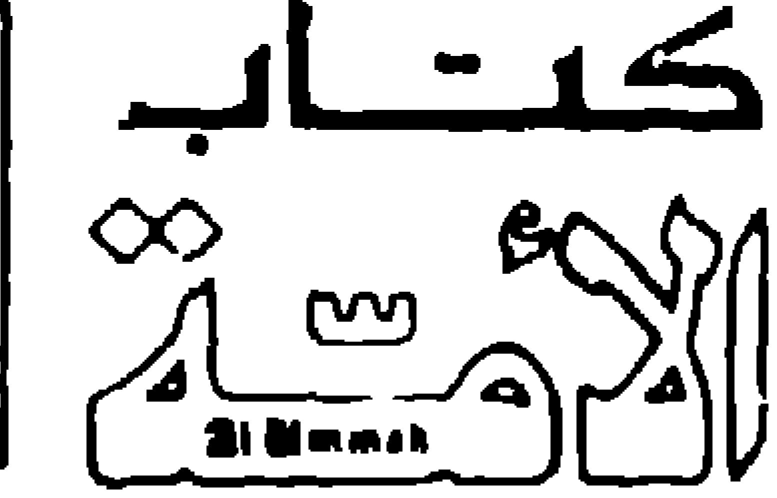
وكلاء التوزيع

البلد	إسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة	٤١٤١٨٢	ص . ب ٨١٥٠ الدوحة
الإمارات	مكتبة دار الأمان	٣٤٤٨٣٠	ص . ب ٤٦٩٥ ابو ظبي
	المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص . ب ١٥٥٤٠ العين
	جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي	٦٦٥٦٥٤	ص ب ٤٦٦٣ دبي
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢	ص . ب ٢٨٧ البحرين
السعودية	شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	جدة ص ب ٩٤٠٩ ٢١٤١٣
		٤٠٥٤٤٤٠	الرياض
		٥٤٥٠٥٤٥	مكة
عُمان	مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤	ص ب ١٨٦٨٢ ظفار - صلالة - سلطنة عمان
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١١٥٠٤٥	حولي شارع المثنى ص . ب ٤٣٠٩٩ رمز بريدي ٢٣٠٤٥
الأردن	مؤسسة البريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١	عمان ص ب ٩٦٠٦٥٤
اليمن	مكتبة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠	صنعاء ص . ب ٥٤٤
السودان	دار التوزيع	٧٩٤٦٠	ص ب ٣٥٨ الخرطوم
مصر	مؤسسة توزيع الأحرار	٧٤٨٨٤٤	ص ب ٧ القاهرة
المغرب	الشركة العربية الافريقية للتوزيع و سبريس	٢٤٩٢٠٠	ص ب 13008-70 زنقة سجلماسة - الدار البيضاء 5
انكلترا	دار الرعاية الإسلامية	2725170 2633071	MUSLIM WELFARE HOUSE 233, SEVEN SISTERS ROAD LONDON, N4, 2DA UNITED KINGDOM

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمـــارات	٥ دراهـم
البحــرين	٥٠٠ فلس
تـونـــس	دينار واحد
السـعـودية	٥ ريالات
الســودان	٢٥ جنيهاً
عُمـــان	٥٠٠ بيسة
قطـــــر	٥ ريالات
الكـــويت	٥٠٠ فلس
مصـــر	٢ جنيه
المغـــرب	٨ دراهم
اليمن الشمالي	١٢ ريالا

○ الأمريكتان وأوربا وأستراليا وباقي دول آسـيـا وأفـريقـيـا دولار ونصــف أمريـــكي أو ما يعادله .





كتاب الأمة
مركز البحوث والمعلومات

هـاتـف : ٤٤٧٣٠٠
فـاكـس : ٤٤٧٠٢٢
بـرقـيـاً : الأمة الدوحة
ص . ب : ٨٩٣ الدوحة ـ قطر

رقم الايداع ٢٧ / ٣ / ٩٣
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0427 - 4
طبع بمطابع دار أخبار اليوم

■ « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا قوما اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .
(عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه)

■ لم يكتف المحدثون ، منذ العهد الأول بالعلم الموجود في بلادهم ، فنراهم يرحلون إلى الأصقاع البعيدة ، لضبط حديث ، أو تلقي العلم بصفة عامة ، أو نشره ، واشترطوا في المرتحل : إخلاص النية ، وحفظ القرآن ، واستيفاء العلم الموجود بالبلاد .

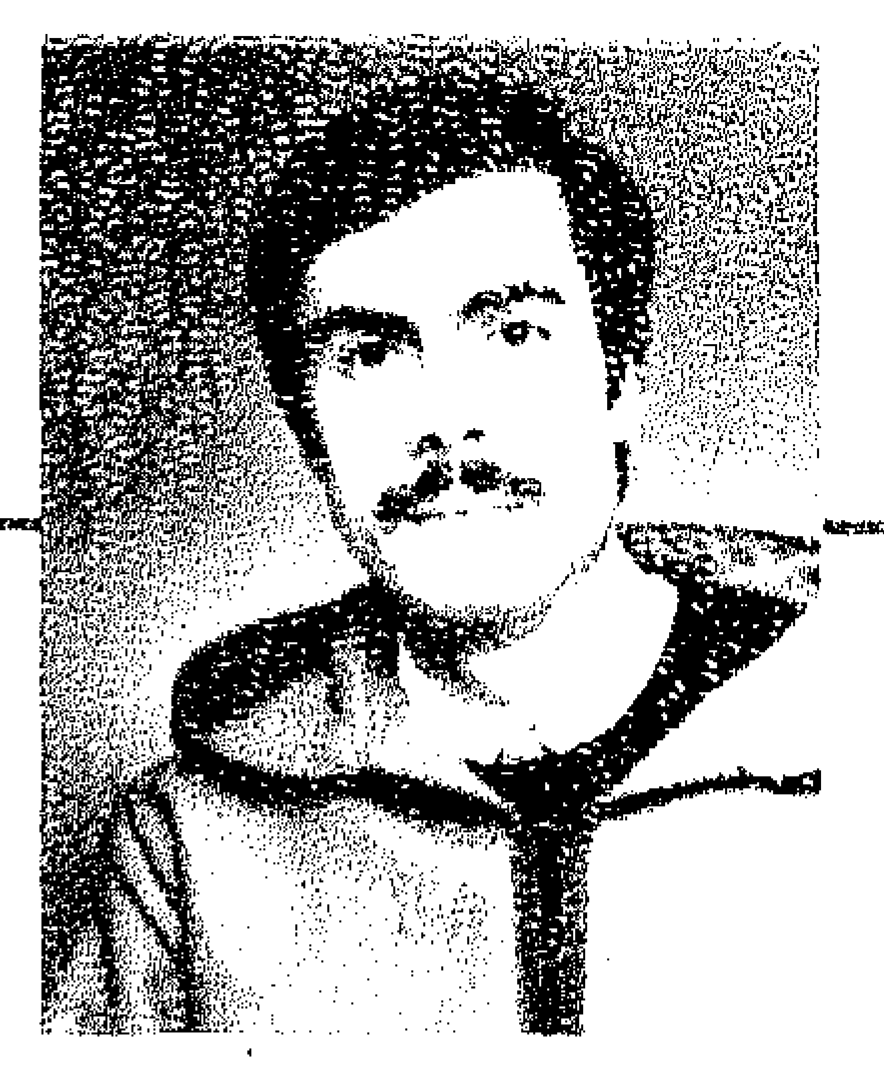
■ النقد المنهجي عند المحدثين كنظام تعليمي ، تأثرت به باقي الميادين التعليمية كالأدب والتاريخ ، في تمحيص الأخبار والمرويات .

■ كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت ، وكان يجلس في حلقة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهم ـ مشاهير العلماء والمجتهدين .

■ أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية في هذه الأمة ، فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم ، حشر يوم القيامة مع الخائنين .
(حديث شريف)

■ لا يكون الرجل عالماً حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغي لعلمه ثمناً .
(عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما)

■ عن أبي عبدالرحمن السلمي قال : حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ ، أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا العلم والعمل .
(مسند أحمد)



الأستاذ / المكي أقلاينة

- من مواليد تطوان ـ المغرب .
- تخرج من كلية الشريعة بفاس .
- حصل على الماجستير شعبة الدراسات الإسلامية من كلية الآداب .
- يعمل الآن مدرساً في شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بتطوان .
- عضو في رابطة علماء المغرب .
- شارك في مجموعة من الندوات والدراسات والأبحاث .



مطابع دار اخبار اليوم